

إِثَار

إِثَار

رواية

رجاء بن علي

إيثار
رجاء بن علي
ردمك: 978-9931-754-19-0
الإيداع القانوني: السداسي الأول - 2020

مؤسسة دروملين للنشر والتوزيع
رقم 01 حي ابن سينا، بئر خادم، الجزائر
رقم الهاتف: (213) 0780002496 / (213) 0561391469
البريد الإلكتروني: dromelin.publishing@gmail.com
الموقع الإلكتروني: www.dromelin.dz

يمنع إعادة إنتاج أو تخزين هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي نظام لتخزين المعلومات أو أية وسيلة نشر أخرى من دون إذن خطي من المؤلف أو الناشر. الرجاء عدم المشاركة في سرقة المواد المحمية بموجب حقوق النشر أو التشجيع على ذلك. نقدر دعمكم لحقوق المؤلفين والناشرين. إن الآثار الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي شركة دروملين.

كل أحداث وشخصيات هذه الرواية من وحي خيال الكاتبة، ما عدا
مرض شخصية أمل والطقس القديم الذي مارسته الجدة¹

1 مرض شخصية أمل، والطقس القديم الذي مارسته الجدة، مستوحيان من فلم وثائقي بعنوان: اليمن - أطفال الجوع، من إعداد: نوال المحففي.

الإهداء

إلى سكان قلبي ...

ثبطني إلى أن ألقاك فزواج الفتن قد اشتدت وهي تعصف بقلبي

استهلال

انتظرتك طويلاً، انتظرتك حتى صار قلبي كجناح الطير يضرب.
انتظرتك طويلاً، انتظرتك لتكوني بلسماً لخدوش قلبي فتعالجينه.
انتظرتك طويلاً، انتظرتك لتُنسيني مرارة الفقد وتعمريني.
انتظرتك طويلاً، انتظرتك حتى مرت الأيام كالصخور الثقيلة.
انتظرتك طويلاً، انتظرتك لكنك رحلت وتركتني وحيدة.

السبت الموافق ل 11 أكتوبر لعام 1997

اليمن / تعز

الفصل الأول

إيثار

غرب اليمن - محافظة الحديدة -

مديرية الخوخة

لو كان الجوع بشراً لأرقت دمه...

عبر ثغرات جريد النخيل التي جعلناها سقفاً لكوخنا المعوز كنت أراقب رهطاً من النجوم التي تجوب الفضاء، لا شيء يميز ليلتي لزنة⁽²⁾ عن سائر الليالي، سوى السماء التي بدت غير آسنة، بسطت كفي ورحت أحصي بأناملي الهزيلة عدد الأيام التي أمضيها رفقة السهاد، خاطبت سريرتي:

- إنها الليلة التاسعة والعشرون التي أرسب في استدعاء النوم فيها، أكاد أجزم أن ذريعة فشلي سببها السغب الذي يتربص بجسدي منذ أيام؛ فعيناي قد غارتا من الجوع، وبطني يتشبه سَعَار³ يزداد لهبه في كل حين، أما وجهي فقد امتقع لونه فصار مصفراً كحبة ليمون.

أطلقت سراح "أوف"، ثم رسمت ابتسامة شاحبة بمجرد أن حطت فكرة على عقلي كما تحط الطيور على الغصون، حدثت نفسي قائلة:

- أحياناً يكفيني أن نتخيل، نعم يكفيني أن نتخيل...

قمت من فراشي من دون أن أحدث أي جلبة تتسبب في إيقاظ جدتي صاحبة النوم الخفيف، ثم رفعت كلتا يدي من أجل زحزحة جريدتين من النخيل عن مكانهما، لكنني ولسوء حظي لم أستطع، يا إلهي ألهذا الحدّ أنا قصيرة ...

2 أي ضيقة من جوع أو من خوف

3 شدة الجوع

ألقيت ببصري نحو عكاز جدتي المضطجع بجوارها، ثم انتشلته خلسة
كمهرب بارع تجاوز إحدى الحدود، رفعته بحذر إلى الأعلى ثم أمطت
الجريدتين عن مكانهما، فتجلت لي رؤية أكوام من النجوم...

استلقيت على الحصير، ثم أعدت للمرة الثانية رسم ابتسامة شاحبة على
قسمات وجهي، ارتحلت على إثرها بمخيلتي إلى تشكيل رغيف شعير من
النجوم التي تجوب السماء، وما إن أتممت تشكيله حتى رحت أوهم نفسي
بتناوله، ولأنني لم أشعر بالشبع تابعت تشكيل المزيد من المأكولات، تارة
أشكل كوب حليب ساخن، وتارة أشكل حفنة من التمر السائخ. وحين
أوهمت نفسي بالاكْتفاء، وشعرت أن بطني قد اكتظ بكل ما لُدَّ وطاب،
تفطنت للزيف الذي كان يحيط بي، فتساءلت بصوت مهموس وأنا أطبق
كلتا عيني:

- هل اعتراني ضرب من الجنون؟ كدت أن أجيب عن سؤالي لولا النعاس
الذي أحكم الإمساك بأطراف جفوني ...

نهلة

قطر - الدوحة -

السادسة والنصف صباحاً ...

حين أهتمت قراءة أذكار الصباح قصدت غرفة أمي كي أطمئن على حالها، كانت أمي ومازالت مصدر أمان لي على الرغم من كثرة الهلوسات التي تُرددها منذ أن لازمها مرض الزهايمر، دلفت غرفتها فأبصرت النوم يعسكر بجوارها، قبلت خدها المتغضن ثم تضرعت باسم الإله الأعظم أن يشفيها ويبارك لها في عمرها، أوصدت باب الغرفة بتأني ثم اتجهت للمطبخ لأعد فطور الصباح كي أتناوله رفقة أبي، الذي ذهب لصلاة الفجر ولم يعد حتى الآن.

ما زلت أحضر فطور الصباح على طريقة زوجي وتقاليده ووطنه، كم أحن لتلك الأيام، ليت الزمن توقف عندها ولم يمض مخلّفاً لي الآلام، تركت القهوة على نار هادئة ثم اتجهت صوب غرفة الاستقبال، أزحت ستائرنا الزهرية التي كانت تتدلى بتبختر فباغتني ألم يشبه وخز الإبرة في قلبي، تخشبت أطرافي وتسمرت في مكاني لحظة قصيرة؛ فدبت وساوس الشؤم في عقلي، لكنني منعت نفسي من التوغل فيها، وأسرعت نحو التلفاز، ضغطت على زر تشغيله، فاستقبلني المنشاوي بصوته الصّداح، مرتلا آيات من سورة البقرة، وما إن ختم الآية (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون) رن هاتف أبي الذي نسيه فوق الأريكة الليلة الماضية عندما كان يقرأ الجريدة...

ظننت أبي المتصل فمن عادته الاتصال من هاتف أحد أصدقائه ليسألني ما إن كانت تنقضي بعض الحاجيات، هرولت باتجاهه ثم رفعت السماعة فجاءني صوت غير مألوف، قال بعد أن ألقى السلام:

- ابنتي نهلة، أنا جاركم محسن.

- وعليكم...

قاطعني مستعجلاً:

- أثناء خروجنا من المسجد أصيب أبوك بوعكة صحية وقد نقلناه للمستشفى.

في تلك اللحظة أصبت بالخرس ولم يعد بمقدوري أن أنبس بكلمة، تابع وهو يسألني:

- نهلة هل تسمعينني؟

أجبتُه باقتضاب وأنا أمسح دمع عيني:

- نعم.

فأردف بعد دقيقة صمت مرت كسنوات عجاف على قلبي:

- يريدك أن تكوني بجواره، أرجوك لا تتأخري، سأرسل لك عنوان المستشفى ورقم الغرفة فوراً، ثم قُطع الاتصال بيننا.

هرعت إلى المطبخ وأنا أحاول بكل ما أوتيت من قوة ألا أفقد توازني، أطفأت الموقد ثم اتجهت بخطوات متلعثمة نحو غرفة نومي، فتحت خزانة ملابسي وأخذت حجابي لأرتديه فاستوقفني رنين الرسالة التي وصلت للتو إلى هاتف أبي، أخذت قلماً ودونت العنوان في يدي، ثم خرجت مسرعة من البيت بعد أن عدلت غطاء رأسي قاصدة موقف سيارات الأجرة.

إيثار

- مديرية الخوخة -

صحوت على لسعات الشمس الحارة التي اتخذت منها منبها لإيقاظي منذ أن انتقلنا إلى مديرية الخوخة النائبة، أخليت سبيل " آه " كنت قد كتمتها ليلة أمس بسبب الأم الذي انبثق عن الحصى التي لم يردعها فراشي البالي من إيلام عظام ظهري التي باشرت في الظهور، فركت كلتا عيني، ثم ألقيت بهما يمينا لأتفحص مضجع جدتي التي غادرته منذ أن صلينا الفجر ولم تعد إليه إلى الآن...

هنا في مديرية الخوخة التابعة لمحافظة الحديدة على الساحل الغربي، كل شيء معطل عن مواكبة الحياة، حتى إن الأيام والشهور باتت متشابهاة عندي، والسبب وراء كل ذلك هو الحرب التي أخذت مني معظم أفراد عائلتي ودفنتهم تحت التراب، "آه" كم أتمنى أن يمحي اسمها من معاجم وقواميس عالمنا البغيض...

زفرت بيأس، ثم التفت عن يميني، فأبصرت جدتي تدلف الكوخ وهي تضم إلى صدرها أمل، خليفة عمتي الراحلة فتجرعت جرعة ألمي المعتادة وارثويت من شراب الحزن الذي سئمت من مذاقه المر ...

تعاني أمل كمعظم أطفال اليمن من سوء تغذية حاد ومزمن، قبل يومين تجاوزت العام والنصف لكنها غدت بوزن طفل في شهره السادس، فقد توقف نموها قبل فترة ولم يعد بمقدورها أن تحيا حياتها كطفلة مثل باقي الأطفال، والسبب وراء كل ذلك حساسية اللاكتوز.

قبل شهر كانت إمكانياتنا المادية تسمح لنا بتوفير لها الحليب الخالي منه، على الرغم من صعوبة العثور عليه بسبب الحرب، لكن بعد أن فقدنا

كل ما ملك في غارة جوية أودت بحياة عمتي سيرين وأطفالها الثلاثة لم يعد بإمكاننا الحصول عليه، فقد أصبحنا ضمن خانة المساكين...

حدّقت جدتي في موضع مرقدتي مراراً وتكراراً، ثم قالت بعد أن سئمت من فتور عينها:

- هل استيقظت؟

أمعنت النظر في قسّمات وجهها التي تعج بتفاصيل القهر والألم، ثم قلت بعد أن نهضت:

- نعم يا جدتي.

اقتربت منها ثم قبلت خدها الدافئ، وأمسكت كفها وطبعت عليه قبلة أخرى، جلست جدتي القرفصاء فجلست بجوارها، أسندت رأسي على كتفها الهزيل، فأحجمت عن الكلام برهة وجيزة ثم أطلقت جيشاً من الآهات.

سألتها وأنا أداعب أمل التي افتّر ثغرها وكشفت لي عن أسنانها اللبنيّة:

- ما بالك يا جدتي؟ أراك اليوم كاسفة الوجه، مشغولة البال على غير عادتك.

زفرت زفرة كادت أن تشق ضلوع قفصها الصدري إلى نصفين، ثم قالت:

- أعلم أنك ستمقتين فعلي هذا، لكن ما بيدي حيلة، لو كان بمقدوري الذهاب بمفردتي لفعلت، لكن بصري الفاتر يمنعني من ذلك - ثم استرسلت وهي تهذب شعر أمل القصير- ستذهبين معي للمقبرة.

أشحت عنها لأخفي وجوم وجهي، ثم زممت شفّتي تدمراً وقلت لها:

- لماذا تصرين على تصديق خرافات جارتنا أم أيوب؟ فالأعمار بيد الله.

قطبت جبينها، ثم طأطأت رأسها، وسكبت دمعها فتساقط كالندى على وجه أمل التي كانت مستلقية في حجرها الضئيل، قالت وهي تكفكف دموعها الغالية على قلبي:

- ستموت أمل جوعاً ولا حيلة لي سوى ممارسة هذا الطقس القديم.

- لكن يا جدتي...-

قاطعت كلامي بإشارة واحدة بيدها ثم قالت بحرقّة:

- سأفعل كل شيء من أجل ألا أخسر شذى أمل الذي يذكرني بابنتي

سيرين.

نهلة

- الدوحة -

بعد نصف ساعة كنت أقف عند عتبات نفس المستشفى الذي شخّص أطباؤه العام الماضي مرض أمي، شعرت بخفقان سريع في نبضات قلبي، كانت النبضات تتسارع كما لو أنها في مضمار سباق.

صعدت إلى الطابق الثاني، ثم انعطفت في ممر طويل حيث توجد الغرفة رقم عشرون، وعندما انتصبت ساكنة عند أسكفة الباب، مددت يدي لأطرقه، لكن الخوف منعني فأرجعتها للخلف، سحبت نفسا عميقا ثم رددت البسملة وربطت جأشي وطرقته، فجاءني صوته الهش يأمرني بالدخول:

- أدخل.

دلفت الغرفة فتسمّرت قدماي، ولم أجرؤ على التقدم نحوه خطوة حين رأيت الأنابيب تكبله كسلاسل خارجة وموصولة به.

قال مطمئنا إياي حين رأى الخوف يفترسني:

- لا تخافي أنا بخير.

اقتربت منه أكثر، قبلت رأسه ثم جلست على طرف السرير ذي الغطاء الأبيض الذي كان يغطّي نصف بدنه، بادر بالكلام سائلا بعد هدوء مزعج:

- كيف حالها؟

- بحالة جيدة، ثم أردفت وأنا ابتسم رغم قلقي على صحته العليلة:

- غارقة في نوم عميق كعادتها، ابتسمت مجدد ثم رحلت أتأمل أي الذي

غزاه الشيب، قبلت كفّه الممجعد، ثم قلت:

- حفظك الله أبي متى...، لكن سرعان ما بترت حديثي حين رأيته يبكي
جامعا كفيه ساتراً بهما وجهه، قال بنحيب مفزع:

- سامحيني - ثم استرسل يلح في طلبه- سامحيني يا ابنتي، سامحيني

...

أزحت كفيه، ثم ابتسمت وأبنت الرضا في وجهي كي يتخلص من شعوره
بالذنب اتجاهي، قلت وأنا أمسح دموع عينه:

- لا داعي للقلق فأنا راضية بقدر الله، حتى ولو كنت أنت السبب في
طلاقي، يكفيني أنك كنت سندا لي بعد هذا الانفصال يا أبي.

خفض رأسه وأحجم عن الكلام فثبت الصمت أوتاده وخيم على كلينا،
حينها شعرت بالانتصار بمجرد أن كف لسانه عن الاعتذار، أكاد أجزم أن
سبب وعكته المفاجأة أنه مازال إلى يومنا هذا يتغلغل في دهاليز الماضي،
التي أضنت أعصابه وأرهقته.

انتصبت واقفة ثم هممت بإسدال ستائر الغرفة التي تسللت منها أشعة
الشمس الحارة، وبينما كنت أرخيها جاءني صوته الحزين مرة أخرى:
- نهلة.

ابتلعت غصتي حين فهمت مقصده، التقط نفسه بصعوبة ثم استطرد:
- لم يتبق لي سوى القليل.

انخلع فؤادي وتصفد جبيني عرقا، استرسل وهو يثبت بصره نحوي:
- طيلة هذه السنوات توسدت الهموم وافترشت الغم، لكنني صبرت من
أجل أن أرضي كبريائي، لكن اليوم ليس كالأمس، فالיום هرمت، وأدركت كم
أنا صاغر ومتمذلل أمام الخطأ الذي ارتكبته في حقك. لقد دفنت هذا السر
في قلبي طيلة عشرين سنة، والآن يجب علي أن أنبش واستأصله من مقبرة
قلبي.

ثم أمال رأسه نحو صدره وعاد للبكاء مرة أخرى.

في تلك اللحظة أوشكت دموعي على السقوط لكنني أجبرتها على الصعود رغما عنها، جذبت نفساً طويلاً ثم رحمت أقول في سري:
- أكمل يا أبي، أخبرني عن السر الذي وأدته في قلبك طيلة هذه السنوات التي مضت.

رفع بصره، لمحني لثواني ثم أشاح بوجهه وقال:

- ابنتك لم تمت.

كنمت ضحكتي التي تحولت إلى ابتسامة عريضة، ثم رحمت أمازحه قائلة بعد أن أسدلت جميع الستائر:

- أي هل أصبت بالعدوى؟ أيعقل أن تكون عدوى الزهايمر قد انتقلت من أمي إليك؟ ألم تخبرني أن ابنتي ماتت؟ ثم أردفت مازحة:

- يا إلهي أخشى أن تنتقل العدوى إلى أحشاء دماغي أنا أيضاً.

رد بصرامة بعد أن جفت دموع عينه:

- أنا بكل قواي العقلية وأنا جاد في كلامي، ابنتك لم تمت، ابنتك ما زالت

على قيد الحياة.

ستر وجهه بالغطاء الذي كان يلفه ثم انخرط في بكاء مرير.

ترنحت في مكاني في تلك اللحظة وشعرت أن مسالك الاستقرار قد اضطربت في حياتي، كان خبراً يحل البكاء ويحجب الصبر على نفسي، حاولت أن أستوعب ما الذي يحدث معي لكنني لم أتمكن، تُرى هل أنا غارقة في غيابات الأحلام؟ كم أتمنى أن ينتهي هذا الكابوس لأستيقظ وأجد نفسي جالسة في غرفتي على كرسي الهزاز...

بقيت متمسرة في مكاني أنتظر انتهاء هذا الكابوس المزعج، مرت دقائق وفي كل ثانية منها كنت أدعو أن أصحو من منامي.

طُرق الباب فأيقنت أنني على أرض الواقع، لكنني لم أجب الطارق، اخترقت أبي بنظري الثاقبة ثم سألته مكررة سؤالاً:

- أين هي؟ أين هي؟

صمت هُنَيْهَةً ثم أجبني باقتضاب والوهن يسترق من صلابته:

- لا أعلم أين هي الآن، فقد فقدت أخبارها منذ عام تقريباً.

أخذت عيني بالمدامع، وأطلقت أسراباً من دموعي المكبوتة، ثبت بصري إلى الأسفل فعاد الطرق على الباب مرة أخرى، أردت أن أسمح للزائر بالدخول، لكن مصابي أفقدني القدرة على الكلام، فأجابه أبي بعد لحظة وجيزة وسمح له بالولوج، كان جارنا محسن قد أتى رفقة ثلاثة أشخاص من جيراننا ليطمئنوا على حال أبي.

قال محسن وهو يمسك بقبضة الباب حين لاحظ الدموع العالقة بين أهدي:

- هل تسمحان لنا بالدخول؟

أخذت حقيبة يدي التي كانت فوق المنضدة بجوار أبي، ثم أجبتته واجمة من شدة غضبي:

- نعم.

إيثار

- مديرية الخوخة -

بعد جدال طويل ومحتدم، تفرقت كلمتنا وتشعبت آراءنا حول الطقس الذي تريد جدتي ممارسته من أجل روح أمل، هي بكل قوة تصر على ممارسته وأنا بكل يقين أرفضه، حاولت أن أثبت لها بأنه مجرد تُرهات باطلة لن تنفع أمل بنافعة، لكنها رفضت الاصغاء وصمت أذنيها وظلت تردد قصص جارتنا أم أيوب التي تروي مفعول هذا الطقس، الذي له قدرة على بث القوة في روح كل من يمارسه على حد زعمها...

لم أظفر بإقناعها ودحضت حججها أمام عزميتها الفولاذية فرفعت الراية البيضاء ورحت بتقاعس ارتدي حجابي الفضفاض وما إن انتهيت من تثبيت نقابي استوقفتني جدتي قائلة:

- ثمة قطع من الرغيف اليابس الذي بللته بالماء، تناوليه قبل أن نذهب، سيسد شيئاً من جوعك.

التقطت نفساً عميقاً ثم حملت أمل وقلت وأنا أطوقها بين ذراعي:
- لا أشعر بالجوع ...

قاطعتني وسمات التبرم بارزة على وجهها:

- لكنك لم تأكلي شيئاً منذ يومين، أخشى أن تُصابي بسوء تغذية حاد ومزمن، كما حدث مع أمل.

أعدت رسم ابتسامة تضاهي التي رسمتها ليلة البارحة، احتذيت حذائي ورحت أقول:

- أحياناً يكفيننا أن نتخيل يا جدتي.

نهلة

في الممر المؤدي إلى غرفة الاستقبال شعرت بدوار شديد، كما أن رؤيتي للأشياء كانت ضبابية وغير واضحة، أحسست بوخز وتنمل في أطراف جسمي، ثم أصبح تنفسي يزداد بسرعة، من بعيد رأيت شخصاً يتقدم نحوي، وعندما اقترب مني أكثر استوقفني بسؤاله:

- هل أنت بخير؟

تقطعت أنفاسي حين حاولت إجابته، وفقدت توازني في تلك اللحظة؛ فجتوت على ركبتي ضامرة، وبلغ سمعي أصوات مكتومة كأنها آتية من نفق، كان صدها يردد من حولي:

- نريد طبيبا، لقد أغمي عليها، ساعدوها....

إيثار

في المقبرة، باشرت جدتي بعيدا عنهم ممارسة طقسها، حيث شرعت في نبش التراب مشكلهً حفرة تتسع لجسم أمل السقيم.

في موضع غير قريب منها كنت أقف كتمثال الحرية غير أنني لم أكن أحمل شعلة السلام، بل كنت أحمل أمل شعلة الجوع والمنون ...

بعدما أنهت جدتي عملية الحفر، أشارت لي بيدها كي أتقدم وأناولها أمل لتكمل ممارسة الطقس، تخطيت ثلاثة قبور وكلي يقين أن الله هو النافع والضرار وحده⁴، فلا هذا الطقس ولا غيره كما تتوهم جدتي - عفا الله عن زلاتها- سيبارك في عمر أمل، بل لله الأمر من قبل ومن بعد، تابعت مشي مسافة قدرها مترين أو أكثر، وحين أصبحت على جنبها الأيمن، انحنيت ثم سلّمتها أمل ..

تركت جدتي أمامي، وبقيت أراقبها على بُعد خطوتين من مجلسها، طبعت على خد أمل قبلة ثم دعت الله أن يبارك لها في عمرها، وأن يجعل الحياة من نصيبها...

بعد زمن وجيز من تمتمة الدعوات وضعت جدتي أمل في الحفرة التي حفرتها، ثم قامت بتغطية أطراف جسدها بالتراب، بكت أمل بشدة في تلك اللحظة وكأن فطرتها النقية تعبر عن رفضها لهذا الطقس الذي لا أساس له.

4 هذا الطقس وغيره مما يفعله بعض الناس، معتقدين أنه من أسباب رفع البلاء أو دفعه، إنما هو شرك بالله؛ ذلك لأن القلب تعلق بالأسباب وغفل عن الله الذي هو مسبب الأسباب.

وبعد مضي دقائق معدودات انتشلتها، وراحت تمسح أثر التراب العالق في ملابسها، احتضنتها وعادت تلهج بالدعاء مرة أخرى، ودموعها تنزف على خدها الكامد، كعادتها منذ فراق عمتي سيرين.

اقتربت من جدتي لأرتب غطاء شعرها الذي أوشك على السقوط، فاستوقفني عويل امرأة يدمي القلب ويخلعه، التفتت جدتي نحوني فقرأت الفزع في عيني، قالت:

- لا تخافي إنها أم سهيل، ثم أردفت بعد أن سترت وجه أمل النائمة بخمارها الطويل:

- المسكينة، كم أشفق على حالها، تنهدت ثم استطردت:

- لقد حاولت إنقاذ ابنها الرضيع من الموت بشتى الطرق لكنها فشلت في آخر محاولة لها، لقد أخبرتني أم أيوب أنها خرجت حافية من بيتها وهي تحتضن رضيعها قاصدة أقرب مركز صحي في الحديدة، لكن عند وصولها كان سهيل يحتضر بسبب سوء التغذية الذي لم يبق من جسده النحيل شيئاً، حاول الأطباء إنقاذه بمعدات بسيطة لكن أمر الله غالب فقد فارق سهيل الحياة بمراى عيون أمه، المسكينة جزعت ولم تستطع أن تتحمل مصيبتها، أتعلمين لماذا يا إيثار؟

أومأت نفياً بهز رأسي يمينا ثم شمالاً وقلت:

- لا.

انتصبت واقفة ثم ناولتني أمل التي غرقت في سباتها للتو، وتابعت وهي تنفض التراب الذي تسلل إلى نعلها:

- لأنها ذاقت مرارة العقم، فبعد أكثر من عشرة سنوات من زواجها أتها البشرى بأن جنينا سينمو بين أحشائها، لكن فرحتها لم تكتمل، وعلى إثر ما أصابها أصبحت لا تفارق هذه المقبرة حتى حيل بين نفسها وعقلها، فهجرتها زوجها، المسكينة لقد صارت تمارس حياتها بجوار رمس رضيعها الذي مات... قاطعت كلام جدتي وأنا أحثها على الرحيل حين اشتد عويل أم سهيل:

- لنرحل فأنا أشعر بالذعر والخوف يا جدي.

نهلة

كانت ساعة معصمي تشير إلى التاسعة وخمسين دقيقة حين استعدت وعي، التفتت يمينا فجأشت نفسي حين رأيت أنبوب مصل مغذي موصل بيدي، تقدمت نحووي ممرضة تبدو في عقدها الثالث، وضعت جهاز ضغط الدم في يدي ثم ابتسمت وقالت بعد أن قاست ضغطي:
- ضغط دمك مرتفع و...

بترت حديثها عندما استرجعت ما حدث لي منذ برهة من الزمن، نزعتم الجهاز والأنبوب ثم انتفضت من السرير وهولت قاصدة الغرفة التي كان يرقد فيها أبي...

عندما وصلت فتحت الباب ثم دلفت، فشدني سريره الفراغ، تجولت عينا في أركان الغرفة بحثا عنه لكنني لم أجد سوى عامل نظافة يهم بغلق النافذة، تبادلنا النظرات وفرائص جسمي ترتجف، سألته وأنا أشير إلى السرير الفارغ:

- أين المريض الذي كان هنا؟

- هل هو قريبك؟

- إنه أبي.

شقق كما لو أن طامة من السماء نزلت ثم قال:

- لو كان أبي على قيد الحياة لما تركته وحيدا وهو على هذه الحال، ثم

استطرد بنظرة ازدراء:

- نقلوه لغرفة العمليات.

صرخت باكية:

- عمليات!، ثم جثوت على ركبتي منهزمة ودموع عيني تهطل بشدة.



حين وصلت إلى الجناح المخصص لإجراء العمليات، رأيت جارنا محسن و ابنه خليل الذي طلب يدي بعدما توفيت زوجته، لكنه لم يلق مني رداً حتى الآن، كانا جالسين والصمت يلفهما، تقدّمت نحوهما لأستخبر منهما وضع أبي الصحي، ألقىت السلام عليهما ثم سألت محسن باتزان:

- كيف حال أبي؟

تنحنح ثم قال:

- فلتطمئني، بجواره عدد من الأطباء، ثم تابع:

- يبدو عليك الإرهاق، هل أنت بخير؟ لقد أخبرني ابني خليل بأنه وجدك على وشك الإغماء في الممر المؤدي...

قاطعته متلعثمة:

- أنا بخير، بخير ...

قضمت شفطي السفلى ثم قلت في نفسي:

- إذن كان هو ذلك الشخص، غمغمت واحمر وجهي خجلاً، ثم انصرفت لأجلس في إحدى المقاعد المخصصة للانتظار، أخرجت هاتفي من حقيبة يدي ثم أرسلت رسالتين، الأولى كانت لأختي شفق المتزوجة، والتي تحتفظ بنسخة من مفتاح بيتنا، أنباتها في رسالتي أن تزور أمي وتُشرف على رعايتها ريثما أتمكن من العودة، أما الثانية فقد كانت للمسؤولة التي تهتم بشؤون المدرسة القرآنية، أعلمتها في كلمات موجزة عن سبب غيابي المفاجئ لهذا اليوم، بعدها بدقائق وعندما تأكدت من وصول الرسالتين، أسندت رأسي على المقعد ثم أطبقت عيناي وانخرطت في بكاء وعويل لا يسمعه أحد سواي.

إيثار

في طريق عودتنا إلى كوخنا المعدم أصرت جدي أن نسلك الطريق المقفر والمختصر حفاظا على مخزون طاقتنا الذي شرع بالنفاذ، وتفاديا للحر الذي يلفح الوجوه...

من جديد عاد ألم الجوع ينخر بطني، لكنني تابعت سيري ولم أعره أي اهتمام كما كنت أفعل معه دائما، والسبب أنني كنت هائمة في غياهب أفكارتي، باغتتني جدي بسؤالها حين قرأت الأسي في محياي:

- لمم كل هذا الحزن الذي يكسو وجهك، هل هو على أم سهيل؟

طأطأت رأسي ثم أجبتها باقتضاب وأنا أسرح بنظري في التراب:

- نعم.

- هذه أقدار الله، ثم استرسلت حين لاحظت ثقلا في خطوات سيري:

- تماسكي لم يبق لنا سوى القليل لنصل.

وما إن أتمت كلامها حتى راح الصمت يطوق بجناحيه على ثلاثتنا، فارتحلت لأغوص في أعماق تفكيري مرة أخرى، سألت نفسي وأنا أثبت نقابي الذي انحلت عقدهته فأوشك على السقوط:

- ماذا لو كانا على قيد الحياة؟ تُرى هل سيفعلان المستحيل من أجل

إنقاذ حياتي كما فعلت أم سهيل مع رضيعها؟

كدت أن أدلي بتساؤلاتي لجدي لكنني أحجمت عن قراري حين عُرضت أحداث ذلك اليوم أمام ناظري كفيلم وثائقي، كان ذلك قبل خمسة سنوات وبالتحديد في إحدى أيام شهر أوت الحارة، أذكر أنني أمضيت وجدتي فصل الصيف لوحدها في بيتنا الواقع في مدينة تعز، بينما غادرت عمتي رحمها الله رفقة أسرته إلى صنعاء، لتقضي عطلتها رفقة عائلة زوجها الذي توفي

قبلها بخمسة أشهر، حينها حلّ عمي ياسر ضيفًا عندنا في إحدى الليالي الممطرة، كانت المرة الأولى التي أراه فيها، كان يشبه جدتي لحد كبير، فقد قاسمته ملامحها منذ الصغر كما أبصرته في إحدى الصور التي رأيتهما خلسة عندما كنت أرتب أثاث غرفتها، في الوهلة الأولى كان سعيدًا بزيارته، لكنه تفاجأ من استقبال جدتي، التي أشعرته بأنه غير مرحب به، فقد احتضنته ببرودة وعبوس، على الرغم من دموع الشوق التي ذرفها بين يديها.

أما أنا فقد سررت بوجوده بيننا، واجتاحني طوفان من الحبور، لأنني تمنيت لو أنه يكسر حاجز الوحدة التي أعيشها، ولسوء حظي لم تكتمل فرحتي، فقد تشاجرا فُييل الفجر بساعة. أذكر أن عمي كان يصرخ بصوت متهدج حينها، كان يقول لجدتي الغاضبة:

- لكنها ابنتي ويحق لي أن...

لكنه لم يتمكن من اتمام جملته، فصوت جدتي السخط والمرتفع لم يترك له لا الفرصة ولا المجال ليستأنف كلامه، وراحت تُحذره بغلاظة وقسوة، فتسأل في نفسي يومها كيف يمكن لأُم أن تفعل بفلذة كبدها ما لا يفعله الغرباء؟

في نهار اليوم التالي لم أجد أثرًا لعمي ياسر، وحين سألت جدتي عنه، أجابتنني واجمة، ببرودة استفزتني وهي ترتشف الشاي الساخن:

- رحل.

أذكر أنني سألتها بعينين مغرورقتين:

- لماذا لم توقظيني لتوديعه، ألسنت فردًا من عائلتكم؟

أجهشت بالبكاء، وذرفت وابل من الدموع حينها، هرولت نحوي ثم ضممتني إلى صدرها فرفعت رأسي إليها، ثم سألتها وأنا أمسح دمع عينيها:

- هل أتى من أجل ابنته؟

في تلك البرهة جمد الدم الذي كان يسري في عروقها، واجتمع عند ناصية رأسها، توقفت دموعها عن الهطول فجأة، ثم هزت كتفي وراحت تعنفي بشدة قائلة:

- هل تنصت على كلامنا ليلة البارحة؟ أهكذا ربيتك يا إيثار؟ ثم ختمت توبيخها بلطمة على خدي، كادت أن تُفقدني توازني، في تلك اللحظة لم أملك نفسي فصرخت لأول مرة بسخط في حضرتها، عاينتها ببصري ثم قلت وأنا أبكي:

- أريد أمي وأبي.

تركت مقعدها، ثم اتجهت نحو الباب وهي تكفكف دمعها، سكنت أمامه لبرهة، ثم قالت وهي تهتم بالخروج من المطبخ:

- والدأك تحت التراب، ومن اليوم فصاعدا لا أريد أن أسمع أي حديث عنهما، ثم استطردت وهي توصل الباب بضربة قوية:

- ولا عن عمك الذي زارنا في عُجالة، ثم عاد للاختفاء مرة أخرى.

نهلة

بعد ثلاث ساعات من الانتظار خرج طاقم الأطباء من غرفة العمليات، وقف ثلاثتنا دفعة واحدة، ثم هرعنا إلى كبيرهم الذي قرأت في وجهه طلاسـم التعب والكدر، التففنا حوله كطلاب ينتظرون صدور قائمة نجاهم، فرمقنا بخيبة أمل واستسلام، سألنا وهو يمسح بمنديل ورقي قطرات العرق التي تربصت بجبينه:

- أقرباء المريض؟

أجبتـه بوجع وأنا أختلج:

- نعم.

نكس بصره وخشعت أطرافه، قال ودمعة على خده المتهدم تنحدر:

- قضاء الله ماض.

في تلك اللحظة امتلأت رئتاي بدخان الحريق المشتعل في قلبي، ضاقت علي لأرض بما رحبت وأدركت أن مصيبي تلهب الكبد وتوهن القلب، أردت أن أقول له:

- أرجوك لا تقل لي أن أبي رحل، لكن غصة في قلبي منعنتني من أن أدلي

برجائي المنتظر.

مسح دمعـه عينه ثم باغتني قائلاً:

- لم نستطع إيقاف النزيف، إنا لله وإنا إليه راجعون.

إيثار

في تمام الساعة العاشرة والنصف صباحاً ولجنا إلى الكوخ، وضعت جدتي أمل النائمة في سريرها الذي يوشك على الهلاك ثم جلست القرفصاء لترتاح وتتنفس الصعداء، بينما أسرعرت أنا إلى دلو الماء لأغسل وجهي وأطرف جسمي لعل حرارة الشمس التي تربصت بجسدي تشد رحالها بعيدا عني. حين أنهيت اغتسالي أفسحت المجال لجدتي لتتوضأ وتقيم نافلة الضحى، بسطت لها الحصر الذي خصصناه للصلاة باتجاه القبلة، ثم استلقيت على الفراش المركون بجوار سرير أمل، ورحت أهدق في جدتي التي استقامت في مصلاتها ثم كبرت بوجل " الله أكبر" لتشرع في صلاتها، حينها لم أستطع الامساك بالدمع الذي انحدر على خدي بمجرد أن لامست "الله أكبر" فؤادي، تذكرت حينها ما قرأته في أحد الأيام فرددته مسترجعة إياه من سرايب ذاكرتي: (لا يكبر عليكم شيء مادامت كلمتكم الله أكبر)، فالله أكبر مما نعاني من فقر وحرمان، الله أكبر من الحزن و الآلام...

أطرقت جفوني ثم فتحتها حين شرعت جدتي في التشهد الأخير، مسحت دموعي بقماش ثوبي، ثم انكأت على جنبي الأيمن ورحت أصغي إلى مقطوعة الجوع التي يتفنن بطني في كل مرة بترنيمها.

- بعد منتصف الليل -

ظلام دامس، هدوء حذر، حر خانق يحتل كل أركان الكوخ العائل، انتصفت ليلتها الطويلة، وها هي تستقبل الهموم لتسامرها حتى يفتق السهاد جفنها ويؤدي قلبها...

انتصبت وهي تستند على عكازها ثم التفت يمينا لتلقي نظرة ذات علق على حفيدتها النائمة، فاستوحشت نفسها وتجرعت غصص الندم،

عَضَّتْ أَنَامِلَهَا لِأَنَّهَا اخْتَلَقَتْ أَكَاذِيبَ بَاطِلَةٍ فِي حَقِّ أُبُوبِهَا، تَمَنَّتْ لِلْمَرَّةِ الْأَلْفِ
لَوْ أَنَّ اللَّهَ يُجْرِي لِسَانَهَا، الَّذِي افْتَرَى الْبُهْتَانَ لِيَسْتَقِرَّ ضَمِيرُهَا الْمَضْطَرِبَ.

هَزَّتْ رَأْسَهَا ثُمَّ قَلَبَتْ كَفَيْهَا تَحْسِرًا، أَطْلَقَتْ سِرَاحَ تَنْهِيدَةٍ، ثُمَّ حَدَقَتْ
يَسَارًا فِي سَبْطِهَا الْيَتِيمَةِ، كَتَمَتْ شَهيقَهَا وَنِيرَانَ الْفِرَاقِ تَضْطَرِمٌ فِي فَوْادِهَا،
رَفَعَتْ يَدَهَا لِلسَّمَاءِ وَرَاحَتْ تَخْمَدُ لَوْعَةَ الْفَقْدِ بِدَعَائِهَا، كَفَكَفَتْ دَمُوعَهَا،
وَتَمَنَّتْ لَوْ أَنَّ الْمَوْتَ أَخْتَارَهَا بَدَلَ فِلْذَةِ كَبِدِهَا، لَطَمَتْ خَدَيْهَا حِينَ اسْتَرْجَعَتْ
مَشْهَدَ إِخْرَاجِ جِثْمَانِهَا رَفَقَةً أَبْنَائِهَا الَّذِينَ اجْتَنَّتْهُمْ غَارَةٌ جَوِيَّةٌ، مَسَحَتْ
دَمُوعَهَا الَّتِي لَمْ تَتَوَقَّفْ عَنِ الْهَطُولِ، ثُمَّ تَمَدَّدَتْ عَلَى الْحَصِيرِ وَكَرَّرَتْ بِصَوْتِ
مَخْتَنِقٍ:

- أُنَى لِي أَنْ أُسْتَقِرَّ عَلَى الْأَرْضِ وَأَنْتِ فِي جَوْفِهَا.

- أُنَى لِي أَنْ أُسْتَقِرَّ عَلَى الْأَرْضِ وَأَنْتِ فِي جَوْفِهَا.

إيثار

المستشفى المركزي في الحديدة
- الجناح المخصص بسوء التغذية -
الرابعة والربع عصرًا ...

على كرسي تكاد قوائمه الرثة أن تنحدر، جلستُ بجوار أمل الراقدة بحالتها الحرجة في الجناح المخصص لسوء التغذية منذ ثلاثة أيام، يقهرني أن أمل لم تعد أمل التي أعرفها، فقد تشرّبت بشرتها كمًا وفيرا من الشحوب، والتصقت عظامها البارزة بجلدها الرهيف، كما أن شعرها وأهداب عينيها أصبحت تتساقط كأوراق الخريف.

خلال إقامتي في هذا الجناح كونتُ صُحبةً عابرةً مع مجموعة من النساء ومن بينهن أم أروى، التي كان سرير ابنتها بالقرب من سرير أمل، كانت أم أروى امرأة مهذار، فهي لم تترك شاردة ولا واردة إلا وحدثني عنها، كانت شديدة التذمر من حالها البائس، وكثيرة الشكوى من زوجها العاطل عن العمل، كنت أصغي إليها بتبرم، وحين أشعرتها أن صبري بدأ ينفد من إطالتها للكلام، ختمت ثرثرتها بنصيحة كررتها على مسمعي ثلاث مرات:

" لا تتزوجي على الاطلاق"، " لا تتزوجي على الاطلاق"، " لا تتزوجي على الاطلاق" ثم كفت لسانها فلم أسمع صوتها إلا في صباح اليوم التالي، عندما أيقظتني من النوم وهي تهز ذراعي، قالت وهي تحمل ابنتها الذي ارتفع بكاؤها عنان الجناح:

- استيقظي يا إيثار، لقد أخذوها لمركز إسعاف الأطفال، ثم استرسلت:
- أنت ممرضة وأخذتها، قالت إن وضعها الصحي مستعصي، وإن لم يتمكن الطاقم الطبي من اسعافها في هذه اللحظات قد تموت.

هممت واقفة وكل عظم من عظام جسدي النحيل يرتعد، قاطعتها قبل
أن تكمل كلامها:

- وهل الأعمار بيدهم؟ منذ متى أصبح الأطباء يقررون أن مريضهم
سيموت أو يحيى، وما إن أتممت كلامي حتى شعرت بالدوار يدهمني
فترنحت كغصن يابس تريد العواصف أن تكسره، جثمت على ركبتي
المرتعشتين وهمست في سري واجفة من فواجع الأقدار:
- أحط الصبر بقلبي إلى أن ألقاك.



تصلبت في مكاني، وانسابت دموعي، وعلا نحيبي حين رأيت بعيني جثة
أمل التي سترقد من اليوم بعيدا عنا، رنح علي، وشعرت أن جدران صبري
قد دكت، وأن قلبي المهشم يتسعر، كدت أن أهوي فاقدة الوعي، لولا تلك
المرأة التي تقدمت نحوي من بين كل الحشود الذين غص بهم المستشفى،
رمتني في حضنها كطفلة صغيرة ثم بكت لبكائي، ووضعت يدها في موضع
قلبي وقالت:

- كل مصيبة وإن عظمت فهي صغيرة إذا احتسبت ثوابها من الله، ثم
استطردت:

- قدرنا أن يموت أبنائنا جوعاً.

في تلك اللحظة تعالى شهيق متقطع مني، رفعت رأسي إلى السماء
ورددت بأعلى صوتي:

- حسبنا الله ونعم الوكيل، التقطت نفساً ثم هزرت رأسي نفيّاً ورحت
أصرح لها بسر من أسراري، وكأنها أقرب الناس إلي:

- لو أنها صفعت كبريائها الطاغي من أجلها لما ماتت، لو أنها طلبت
المساعدة من ابنها لما حصل كل هذا.

أخذت بيدي تلك المرأة التي بدا لي عليها شيء من الترف، أقعدتني على
إحدى الكراسي ثم قالت:

- من هي؟

أجبت باقتضاب وأنا غارقة في دموعي التي أخضلت نقاي:

- جدتي.

ربتت على كتفي وقالت:

- والتي تُوفيت أهي أختك؟

- بللت شفتي الجافتين بريقي ثم قلت:

- كلا، هي ابنة عمتي الراحلة - ثم تابعت وأنا أشد حجابي بقبضة يدي

- كلتينا يتيمتين وتعتني بنا جدتي.

التقطت نفساً ثم سألت:

- ولماذا هي ليست معاك؟

- ارتفاع درجة حرارتها منعها من القدوم، لقد قطعت وعداً لها بأنني

سأعتني بأمل ريثما تصبح بحال جيدة، وتتمكن من اللحاق بنا، لكنها لم تأت، لقد مضت أربعة أيام على قدومي للمستشفى أخشى أنها تخلت عنا.

تنحنحت المرأة التي بدت لي أنها في عقدها السادس ثم قالت بصوت

رقيق:

- كلا، هي لم تتخل عنكم، فالأجداد لا يتخلون عن أحفادهم مهما حدث،

وسأثبت لك صحة كلامي، لكن أخبريني أولاً أين تقيمين رفقة جدتك؟

- في مديرية الخوجة.

- وكيف ستعودين؟

- لا أدري، ربما علي أن أنتظر إلى أن تأتي...

قطعت حديثي وهي تعدل غطاء رأسها قائلة:

- لا تهتمي، لن أتركك لوحدي، سأهتم بكل شيء وسأتكفل بإيصالك،

أخرجت هاتفها المحمول من حقيبتها، ثم أجرت اتصالاً بعيداً عني، وحين

أنهته تقدمت نحوي، تنحنحت مجدداً ثم قالت:

- في ظرف ساعة سنذهب.

طأطأت رأسي، ثم سألتها ودموعي ما فتئت تنزف:

- أعلم أنه ليس الوقت المناسب للحديث عن هذا، لكن أخبريني لماذا
تُمدّين يديك لمساعدتي؟

تنهدت، ثم قالت وهي تمسح الدموع العالقة بين أهدابها:

- ربما لأن أرواح المؤمنين تتعارف، وربما ليهدأ ضميري الذي ما زال
يؤرقني بتأنيبه، ثم واصلت بعد نوبة سعال حاد:

- قبل عشرين سنة كنت أعمل قابلة تشرف على ولادة النساء في إحدى
مستشفيات تعز، كم كنت متيمة بعملتي آنذاك، لكنني سرعان ما مفته
وبغضت نفسي، حين أذعنت لأوامر رجل لا أعرف عنه سوى أنه ذو جاه
عالي، قابلني في إحدى أروقة المستشفى وتحدث معي بإسهاب، وفي آخر
اللقاء رشاني بمبلغ باهظ مقابل أن أنبأ ابنته التي أشرفت على توليدها أن
مولودها قد ولد ميت، وبالفعل أغرني الجشع وفعلت.

ولأن ضميري أنيني بشدة على ذنبي، قررت أن أبحث عن خيوط
توصلني لتلك المرأة التي كان مولودها من أب جزائري، لكنني لم أتمكن من
العثور عليها، فعاهدت نفسي بعد عدة محاولات يائسة في العثور عليها، أن
أخصص معظم أوقاتي لأمد المساعدة لكل محتاج لعلمي أكفر عن خطيئتي.



مديرية - الخوخة -

حتى ولو اختلفت رسل المنية فالموت واحد ...

خاطبت نفسها بصوت خافت حين أيقنت أن عرضا طفيفا للهيضة⁵ قد
تربص بجسدها الذي اعتراه الوهن، منذ أن شربت مياهاً ملوثة، أمسكت
بحزمة صغيرة ذات قماشٍ بالٍ كانت تطوق رقبتها كالقلادة، ثم غرست

بصرها فيها قبل أن تحل عقدتها، نقشت رموز الحزن على وجهها فانجست دموع الأسف من عينها، توانت في فك خيوطها بعد أن طمست بكائها، لكنها سرعان ما ربطت جأشها حين أدركت أن هذه فرصتها المتبقية، وأن سكوتها سيكون سببا في موت كل من حفيدتها " أمل وإيثار"... حررت شعبا من الآهات الساكنة بين ثنايا قلبها، ثم حلت خيوط الحزمة بيد مرتعشة، واستخرجت منها ورقة بالية كانت قد دونت فيها رقم هاتف ابنها قبل أن ترحل ابنتها، عدت الأرقام واحد تلو الأخر، ثم بكت حتى ابتل نحرها، أحكمت القبض على الورقة في يديها، ثم قالت بحسرة وهي تسترسل في بكائها:

- أئي لي أن أكلمه وقد بترت قسوتي جناحيه.

ما زالت تخجل من فعلها الذي دمر حياة ابنها، أسدلت أجبانها المتورمة ثم التهمت نفسا عميقا، وقامت لتنادي جارتها أم أيوب.

بعد عدة دقائق كانت أم أيوب واقفة بين يديها، شكلت الرقم على هاتف استعارته من أحد الجيران، ثم استأذنتها للخروج، عادت للجلوس فتردد في أذنيها صوت اصطكاك عظام قدمها الهزيلة، جذبت نفسا ثم ضغطت على زر الهاتف لتشرع في اتصالها، وراحت تنتظر مخلوعة الفؤاد، رد ابنها الذي طردته من بيتها ولم تسمع صوته منذ نصف عقد كامل...

باريس - الحي اللاتيني -

- بعد منتصف الليل -

بعد نهار شاق في عيادته استلقى على الأريكة، وضع يده تحت رأسه، وساقا على ساق، وراح يحصي بأصابعه عدد الأيام التي لم يتلق فيها اتصال منها، أخرج زفيراً، كاد أن يستأصل رثته ثم قال بصوت يشوبه الاضطراب:
- ثلاثون يوماً، أخشى أن مكروها قد أصابهم.

نهض من الأريكة وهو يتصبب عرقا، مشى إلى أن وصل إلى النافذة التي تطل على الحي الهادئ، ثم عاد مرة أخرى إلى مكانه، قضم أظافره ليتخلص

اجابت باقتضاب وقلبها يعتصر:

- نعم.

تخشبت أطرافه وانتصبت شعيرات جسمه واقفة كجنود تتأهب للقتال،
قال بصعوبة كأنَّ روحه على وشك الصعود للسماء:

- متى؟

- قبل ليلتين من موعد رحلتنا؟

ذابت كل دموعه الجامدة في مقلته، وبكى بلوعة، ساد الصمت بينهما
لدقائق ثم استطرده يستوضح منها:

- كيف حدث كل هذا؟ كيف؟

ردت بنفس أضيح من سم الخياط:

- في غارة جوية على بيتنا، ثم واصلت حديثها وهي تبكي بكاء متقطع:

- تعال لمديرية الخوخة، وخذ ابنتك وأمل قبل أن تغرس المنية أطرافها
في جسدي، ثم أردفت مسلوبة السكينة:

- لم أستطع إخبارها بالحقيقة، لذا سأترك لك مهمة إعلامها بنفسك...



إيثار

مديرية - الخوخة -

من الرهيب أن تضم جثمان من هم منك إلى أحضان صدرك...

حين وصلنا إلى مديرية الخوخة، تابعنا سيرنا إلى كوخنا مشيا على الأقدام، كنت أحمل جثمان أمل البارد وأضمه إلى صدري بيدي المرتعشتان. بينما كانت تلك المرأة التي لم تطلعني عن اسمها، تعاني اضطرابات طفيفة في تنفسها، اقتربت منها أكثر، ثم سألتها على حين غرة:

- هل نتوقف قليلا لرتاحي؟

هزت رأسها ثم أشارت بيدها كي نواصل سيرنا، ابتسمت بألم ثم رحلت أحرق في الشيب الذي تسلل من غطاء رأسها، وتلك التجاعيد البارزة على جبينها وخطها، فتفتت لرؤية جدتي وشعرت بالحرق حين اتهمتها بالتخلي عنا، انسكبت دموع الشجن من عيني فحدثت نفسي:

- يكفيني أنها كانت لي كالأم والأب، يكفيني أنها رعتني رعاية حسنة، لكن ما عساي أن أقول لها حين ترى جثمان أمل التي كانت تشم فيها رائحة عمتي الراحلة، وتتسلى بها لتنسيها مرارة فقدانها.

أطلقت سبيل زفرات، ثم رفعت رأسي للسماء ودعوت الله أن يمنحني وإياها مزيداً من الصبر، وما إن أتممت دعائي حتى تنبعت لكفها المتغضن الذي وضعته على كتفي، سألتني مستغربة:

- لماذا تجمّع النسوة؟

ازدردت ريقى الذي تأججت فيه أشوك الفزع ثم قلت بتلعثم:

- إنهن على مقربة من كوخنا، أخشى أن مكروها قد أصاب جدتي، ناولتها

جثمان أمل ثم قلت:

- سأسبقك لأطلع على الأمر.



حين ولجت الكوخ رأيت جدتي ممددة على ظهرها، ويديها ملتصقتان بجسدها الذي فتك به الجوع، كانت ساكنة كجثة هامدة، حاولت الاقتراب منها لكن ساقاي خانتني فهويت جاثية على ركبتي ويدي، أردت الوقوف لكنني لم أتمكن، فحبوت وأنا أجهش بالبكاء كطفلة صغيرة إلى جدتي التي أخبرتني أم أيوب قبل أن أدخل عليها بأنها تُحتضر.

استأنفت دُنوي إلى أن أصبحت على جنبها الأيمن، نزعت نقابي ثم وضعت كفي على خدها الذي نُقش عليه الشحوب، شيعتها بنظري وعيناي تسيلان بأربعة أماق، فُلْتُ بنحيب وأنا أمسح دموعي:

- جدتي ها قد أتيت، أتيت فلا ترحلي ولا تتركيني لوحدي، لكنها لم تنبس بكلمة ولم تتحرك فأنخلع قلبي الوجل، لكن سرعان ما شعرت بالسكينة، حين فتحت عينها الذابلتين بعسر، رفعت يدها المرتعشة ثم مسحت دمعي ونطقت بصعوبة اسمي.

- " إيثار"، سامحيني بحقك يا ابنتي.

ثم التفتت ونادت باسم عمي ياسر الذي لم ألحظ وجوده في الكوخ من شدة هلعي، تأملني للحظات ثم جلس بجواري، مد يده لمصافحتي ثم قال باستعبار:

- نعم يا أمي.

أزاحت يدها المرتعشة على كفي ثم وضعتها في موضع قلبها، قالت وروحها تتحشرج في صدرها:

- إيثار وأمل وديعتين عندك، فلا تضيعهما، ثم تأوهت بشدة فكاد ألمها أن يهلك نياط قلبي، رفعت سببتها نحو السماء، ثم أشارت لكلينا أن نلقنها الشهادتين.

جنوب اليمن - مدينة عدن -

استيقظت على وقع أقدام تتحرك في الممر الخارجي، كان نور الغرفة خافت وكانت نوافذها مفتوحة وستائرهما تتراقص على نسيمات الهواء الحارة، كنت ممددة على سرير خشبي، وكانت يدي اليسرى مصفدة بأنبوب مصل مغذي، أغمضت كلتا عيناي ثم حاولت أن أتذكر شيئاً مما حدث معي فلم أنجح، اجتليت الجدران المطلية بلون الدراق الفاتح، ثم وضعت كفي فوق جبهتي وتساءلت في نفسي:
- هل أنا في المستشفى؟ ثم أضفت:

- لكن أثار الشقة لا يوحي بذلك، سحبت نفساً عميقاً، ثم نفثته في الهواء، أبعدت الملاءة التي كانت تلف نصف جسدي، ثم انتصبت ونزعت أنبوب المصل من يدي...

خطوت خطوتين بغيّة استكشاف المكان، لكنني توقفت حين رأيت باب الغرفة يفتح بتأني، ثبت عيني فيه وبقيت انتظر الشخص الذي سيدخل، وحين ولج صوبت فيه طرفي وصعدته، فاصطكت قدماي ثم سقطت على السجاد فتطاير الغبار منها واعتزنتي نوبة سعال حادة، هرع باتجاهي ثم جثا بقربي فأحكمت الشد بقبضة كفاي على قميصه، ثم سألته وأنا أبكي:

- جدتي وأمل أين هما؟

أعرض عني بنظره ثم همهم وقال بطرف ساكن:

- لقد وارى الثرى جسديهما.

أرخيت قبضة يدي من قميصه ودموعي تنهمر، أمسك بذراعي ثم وضعه على رقبته وقال:

- هيا استندي عليّ وحاولي أن تقفي.

ثبّت عيني في عينه ثم قلت له:

- لا أستطيع.

- سأكون سندك هيا حاولي.

- دعني وشأني ثم واصلت كلامي بلوعة:

- لن أحاول قبل أن تخبرني لماذا رحلوا وتركوني لوحدي؟ صدقني لا رغبة لي في الحياة من بعدهم، عد من حيث أتيت يا عمي واتركني هنا لوحدي. جمدت أعضاؤه، رشقني ببصره ثم هز كتفي بشدة، وقال بعينين مغرورقتين:

- وأنا من سيبقى معي، لقد اهترأ قلبي وما عاد بقدوري أن أتحمل فقدان آخر فرد من عائلتي، صمت قليلا وساد الهدوء في الغرفة، مسح دموعه ثم حملني كحمل وديع، ووضعني على السرير، ثم نبهني قائلاً:
- صحتك ليست بحالة جيدة، لذا الزمي فراشك ولا تتحركي ثم تابع وهو يعيد تثبيت المصل المغذي في يدي:

- سأحضر لك شيئاً لتتناوليه ولن أتأخر، استدار ثم خرج من الشقة وتركني اتخبط تارة مع دموعي وتارة أخرى مع حزني.



بعد وجبة كثيرة الدسم أجبرني عمي ياسر على تناولها استعدت شيئاً من طاقتي، كانت ساعة هاتفه المحمول تشير إلى الثامنة والنصف مساءً، حين دخل الغرفة وهو يجر كرسيًا خشبياً بكلتا يديه، وضعه بجواري ثم قال:

- لم أجد مفاتيح بقية الغرف لذا سأنام الليلة بجوارك.

افترّ ثغري، ثم سألته وهو يجلس:

- عندما صحت ظننت أنني في المستشفى...

قاطعني متوجساً وكأنني ألقيت على مسمعيه خبراً سيئاً:

- أيعقل أن أقودك لحافة الموت يا ابنتي، ألا تعلمين بأنها باتت أكثر الأماكن المعرضة للقصف هنا، ثم أردف:

- ما يحدث في اليمن هو أسوأ أزمة تمر في العالم.

صمت قليلاً فأدليت بسؤالي بغتة:

- وأين هما؟

- من تقصدين؟

- أمل وجدتي.

وضع كفه على جبیني ثم قال:

- حرارة جسمك معتدلة فلم الهذيان، ألم أخبرك أن جسديهما وريا الثرى.

- أعلم لكن أين؟

أخذ نفسا عميقا، ثم قال وهو يضم يديه إلى صدره:

- أوصت أمي قبل رحيلها أن تُدفن في نفس المقبرة التي دُفن فيها أبي،
وشقيقتي سيرين وأطفالها.

- وأين نحن الآن؟

تردد في الإجابة وشعرت أن لسانه قد تلعثم، أسدل جفونه المكتئبة ثم
قال:

- في عدن وبالتحديد في بيت والديك.

سرت قشعريرة في جسدي وتردد صدى كلمة " والديك " في مسمعي
رفعت حاجب دون الآخر ثم قلت مندهشة:

- والداي!، ثم واصلت حديثي وأنا أرمقه ببصري:

- لكنني لا أذكر أنني عشت هنا أي فترة، فجّل ما أذكره أنني ترعرعت
بين أحضان جدتي، في بيتنا في تعز.

شبك أصابعه ثم وضع يده خلف رأسه وقال وهو يرخي مفاصله:

- ذلك لأنهما انفصلا قبل ثمانية أشهر عن موعد ولادتك.

قطبت جبیني وقلت بسخرية:

- انفصلا... زمت شفتاي ثم تابعت قائلة:

- يبدو أن الأمور قد التبتت عليك فجدتي قد أخبرتني أنهما ماتا في
حادث مرور مروع.

احتبس عن الكلام، طأطأ رأسه ثم قال بخاطر منكسر:
- لقد رحلا وربما سيعودان لك.

وضعت كفي على جبينه، ثم كررت ما قاله لي منذ برهة:
- حرارتك معتدلة فلم الهذيان، وما إن أنهيت مزحتي حتى رأيت
ابتسامة تشق طريقها في قسماط وجهه.

بعدها بدقائق انتشر الصمت في أرجاء الغرفة لكن سرعان ما تلاشى على
وقع تنهيداته المتواصلة، نهض ثم راح يتحرك في الشقة إلى أن استقرت
قدماه عند النافذة، غرس أنامله في ستائرهما ثم قال:

- سأحاول بكل وسعي أن أجري تدابير سفرنا بسرعة، وخلال أسبوع على
الأقل سنسافر، ثم واصل وهو يهم بالجلوس على طرف سريري الذي كانت
تتدلى منه شرشف زهرية:
- إلى فرنسا.

نظرت إليه بمجامع عيني، ثم قلت:
- ألن نعود للجزائر؟

هز رأسه وراح يحركه يمينا ثم شمالا، حدق في ساعة معصمه وقال:
- ألم تخبرك أُمي بأنني أعيش في باريس منذ أكثر من عشرين سنة.
أشحت بوجهي، فتماثلت في ناظري صفة جدتي في ذلك اليوم المشؤوم
كما دونته في ذاكرتي، وضعت كفي على خدي كأنني أتحسس ألم اللطمة
الذي عاودني للتو ثم قلت:

- لم أجرؤ على سؤالها، فمنذ أن غادرت ذلك الصباح، منعتني من أن
أدلي بأي استفسار يخصك أو يخص والدي رحمهما الله.
اصطنع ابتسامة وشعرت أن كلامي قد أربكه، أمسك بذراعه ثم راح
يقول:

- هلا أخبريني كيف توفيت شقيقتي سيرين وأبنائها الثلاثة؟
صمتت هنيهة لأسترجع أحداث ذلك اليوم ثم قلت بأسى:

- كان كل شيء يسير كما خططنا، فبعد أن أتمت عمتي سيرين ربط عدة زوجها المتوفي، باشرنا في التحضير لسفرنا الذي انتظرناه بفارغ الصبر، أذكر أنه كلما انقضى نهار كنت أحصي في ليلته عدد الساعات المتبقية على رحيلنا، ثم أهرع لجدي رحمها الله وأخبرها بأنه لم يتبق لنا سوى القليل على موعد رحيلنا، يشرق وجهها في تلك اللحظة ويفتر ثغرها كفتاة شابة وصلها للتو خبر قبولها في الجامعة، كانت تضع كلتا كفيها على خدي ثم تقول:

- سترين بلد المليون ونصف المليون شهيد كما وعدتك يا إيثار. لكن وعدها لم يتحقق فقبل موعد سفرنا بيومين طلبت مني جدي أن أرافقها لتوديع بعض خليلاتها القديمات، والتي تعرفت عليهن طوال مدة إقامتها في تعز، أذعنت لطلبها بطيب خاطر، وأخذنا معنا أمل وتركنا عمتي رفقة أطفالها في البيت ليساعدها في إتمام حزم حقائبهم، وبينما كنا نجتاز إحدى الشوارع سمعنا دوي انفجار قوي الضجة، حينها طار قلبي بجناح الذعر، أما جدي فقد هوت جاثية على ركبتيها في الطريق، لطمت خديها وراحت تنوح قائلة:

- ابنتي، ابنتي...

سألتها وأنا أساعدها على الوقوف:

- ما بها يا جدي؟ لكنها لم تجب وأمرتني أن نعود أدرجنا، كنا كلما تقدمنا من بيتنا زاد صوت العجيج، فأيقنت أن إحساس الأمهات لا يخطئ إذا تعلق الأمر بأبنائهن، وبالفعل صدق ظن جدي، فقد أبصرنا حين وطأت أقدامنا الحي الذي نقيم فيه، حجم الدمار الذي خلّفته الغارة الجوية التي اختارت بيتنا من بين كل البيوت لتجعله ركاما وحطاما.

الفصل الثاني

جواد

باريس - الحي اللاتيني -

السابعة والنصف صباحاً ...

الغربة نوع من أنواع اليتيم ودرجة من درجاتها ...

ها أنا أحتسي قهوتي الممزوجة بمرارة الشوق من دونك كاليتيم يا أمي،
ها أنا أرشفها بغصة الحنين إليك، ها أنا أتجرعها وفي قلبي لهفة الارتفاء بين
أحضانك، لكن هل سيسعني حضنك بعد كل هذه السنوات يا أمي؟ لأنني
كبرت، كبرت ولم أصبح صغيرك المدلل الذي لطالما سخر منه أقرانه، لقد
تغيرت ملامحي يا أمي، لقد نضجت وأصبحت رجلاً مسؤولاً عن نفسه.

رشفت آخر رشفة من فنجان القهوة ثم وضعته فوق مائدة المطبخ
ورحت أشمر على ساعدي لغسل الأواني التي تركتها ليلة البارحة فأوقفني
رنين هاتفي معلنا وصول رسالة من ياسر، فتحت قفل الهاتف ثم نظرت
ملياً إلى نص الرسالة، وما إن أتممت قراءتها حتى اتصلت بقريبة أمي ماريما
والتي تعمل موظفة استقبال في عيادة ياسر لكنها لم تجب، فأعدت الاتصال
بها فردت، بادرتها بالكلام قائلاً حين رفعت السماعة:

- أعتذر عن ازعاجك، هل أيقظتك من نومك؟

ردت باقتضاب:

- نعم.

قلت لها وأنا أضع الصحون في حوض الغسيل:

- هل أعيد الاتصال بك لاحقاً؟

أجابتن بصعوبة وكأنها تدفع لسانها بثقل ليتكلم:

- لا، فمن الجيد أنك أيقظتني، لدي الكثير من الأعمال التي يتوجب عليّ فعلها، ثم استرسلت تبث شكواها:
- لقد اكتحلت بمراود الأرق الليلة الماضية ...
قاطعتهُ لأنني لا أريد أن يعكر استيائها صفوة صباحي:
- أريد منك خدمة؟
تثاءبت ثم قالت:
- تفضل يا قريبي أنا في خدمتك.
- لدي موعد مع طبيب الأسنان في الوقت الذي سيصل فيه ياسر للمطار،
ثم استرسلت وأنا أمسح المائدة:
- هلا استقبلته من فضلك؟
نادت على ابنتها ثم قالت:
- لا تقلق سأذهب لاستقباله.
نقشت ابتسامة على ثغري ثم شكرتها من أعماق قلبي، أنهيت الاتصال
ثم رحّحت أكمل غسيل الأواني المتراكمة بتبرم وتأفف.

إيثار

جنوب باريس - مطار أورلي -

- وصلنا.

قالها بهدوء بعد حاجز صمت دام ليوم كامل، ملح ساعة معصمه ثم أخرج هاتفه الذي كان يرن من جيب قميصه الأسود، سار بخطوات منتظمة ثم رد على متصله، وتحدث بإسهاب معه حتى أزعجني طول حديثه فاضطرت للجلوس على المقعد بتذمر، وضعت رجلا على الأخرى ورحت أتجول بعيني في أرجاء المطار المكتظ بالمسافرين لكنها سرعان ما شخصت حين رأيت حفيذة لم تتجاوز عقدها الأول تحتضن جدتها المقعدة، في تلك اللحظة طغت مرارة في حلقي وسفكت دموع الحسرة من عيني، وضعت يدي على قلبي ثم رددت ما حفظته عنها:

"لا سخط مع حكم الله فلا تجزعي".

احتضنت حقييتي ثم استدرت إلى عمي ياسر فرأيتته يتقدم نحوي، جلس بجواري ثم ضم كتفيه إلى جهة صدره وقال:

- سيصل جواد بعد ربع ساعة، ثم استأنف ينفخ خبره، ليقلنا إلى الحي اللاتيني حيث سيكون بيتك الجديد هناك.

ابتسمت ابتسامة خفيفة من وراء نقابي ولم أنفوه بكلمة، ثم رحلت أتجاوز بفضول مع نفسي:

- من يكون جواد؟

- هل هو ابنه؟

- لا، لا، أظن ذلك، فجدي أخبرتني أنه منذ انفصاله لم يتزوج.

سحبت نفسا عميقا ثم عدلت نقابي، فداهمني قائلا حين تمكن من قراءة أفكارني:

- جواد يعمل مساعد ممارس في عيادتي، ثم اعتزل الكلام إلى أن بزغت امرأة بدلا عن جواد من بين الممارين، كانت تلوح من بعيد وتنادي باسم عمي.



بخطوات رشيقة وبأكتاف مشدودة ومستقيمة تقدمت نحونا وهي تضع نظرات شمسية فوق شعرها المسدل، لها عينان مستديرتان وحاجبان ممتدان، وفم قصير لا يتسع لابتسامة عريضة، ألقّت السلام ثم قالت:
- على سلامتكم.

نقش عمي ابتسامة على وجهه لكنه سرعان ما أخفاها، قال وهو يفرك ناصيته:

- الله يسلمك، ثم أردف:

- لم أتوقع قدومك فقد كنت أنتظر جواد.

ارتجت قسما وجهدا، ابتسمت لتستر اضطرابها ثم قالت وهي تحكم القبض على مفتاح سيارتها:

- لديه موعد مع طبيب الأسنان ألم يخبرك؟

أوما إليها سلبا، فقالت:

- لا تلمه فهو سريع النسيان.

هز كتفيه غير مبالي، ثم تزحزح عن مكانه مقدار نصف خطوة واستدرا نحوي، قال وهو يضع كفه على ظهري:

- أعرفك بابتني إيثار.

رفعت رأسها قليلا وعقدت جبينها، ثم مدت يدها لمصافحتي، قالت وهي تحكم القبض على كفي:

- مسرورة برؤيتك.

اقتربت منها أكثر ثم قلت بتودد:

- وأنا مثلك.

في تلك الأثناء لبس عمي حقيبة ظهره، بينما نزعت ماريًا نظارتها الشمسية وراحت تمسحها، ارتدتها ثم سألت عمي ياسر:

- هل نذهب؟، فأجابها فوراً:

- نعم...

تركتهما يتقدمان قبلي، ثم مشيت خلفهما وأنا أجر حقيبتي التي كانت تحوي قليلاً من الخبيرة وكثيراً من الوحدة.



أدخلت المفتاح بتريث في ثقب باب الغرفة، ثم قالت وهي تشرع في فتحه:

- أغلقي عينك.

قلبت عيني في أركان ردهة بيتي الجديد، ثم قلت وأنا أرمقها ببصري:

- وهل سنلج مغارة علي بابا والأربعون لصاً؟

ضحكت ملء شديها، ثم قالت:

- كلا بل سنزور أليس في بلاد العجائب.

وضعت الحقيبة التي كنت أحملها ثم امتثلت لأمرها كتلميذ أمر بفتح واجباته، أمسكت بيدي، وخطونا حوالي أربع خطوات بخفة، ثم قالت ببهجة:

- هيا افتحيهما، ثم أردفت وهي تنير مصباح الغرفة:

- هل أعجبتك؟ لقد صممتها خصيصاً لك كما أمر عمك ياسر.

أجبتها وأنا أجتلي الغرفة ببصري:

- طبعاً، ثم أضفت وأنا أحول بصري عنها، وأكثر ما شدني تلك الرفوف

التي وضعتها فوق المكتب، تصميم رائع وذوق رفيع...

التهمت نفسها عميقاً ثم قالت وهي ترخى قسمات وجهها:

- سررت برأيك، ثم استطردت بتأسف وهي تطرق بصرها:

- حزينه من أجلكما، فكلكما مرّ بظروف صعبة وندبات الألم وقروحه لم تُشف بعد في قلبيكما، مسحت دموعاً كانت تلاًّ في عينها ثم استرسلت:
- سأساعد ياسر في حمل الحقائق المتبقية، أنت ارتاحي ولا تتعبي نفسك.

عندما خرجت ماريا تنفست الصعداء، نزعَت نقابي وحجابي ثم اخترت من خزانة الملابس فستان وردي اللون ذا حاشية مزخرفة وشفافة، ارتديته ثم أسدلت شعري الطويل وثبت بصري في المرأة التي تتوسط الغرفة، وبينما كنت أتفحص شحوب وجهي في المرأة أفزعني وقع ارتطام فالتفت إلى مصدره فأبصرتها متمسرة عند عتبة باب غرفتي، وضعت كفها فوق فمها المفتوح ثم شهقت فطوقت المكان ببصري ثم استدرت خلفي لأرى أي نوع من الأشباح الذي قد سبب لها كل هذا الفزع، قالت وهي تتقدم نحوي:
- أنت.

هدأت من روعة قلبي ثم قلت ببرود:

- ما بها أنا؟

- جميلة جداً ثم استرسلت:

- لماذا تدفيني جمالك الأخاذ تحت قماش أسود؟

رسمت ابتسامة باهتة، ثم قلت وأنا أغلق الخزانة⁶:

- لأن القلب يشتهي، وقد لا يشتهي، والقلب عند عدم الرؤية أظهر، لأنَّ الرؤية سبب التعلق، فكان الحجاب أظهر للقلب، وأنفى للريية، وأقوى في

6 الكاتبة تصرفت في بعض ما ورد، في عدد من الكتب التي عالجت موضوع الحجاب، وجعلته على لسان شخصية - إيثار - وقد تم توثيق الصفحات حتى يتسنى للقارئ العودة لمرجعها الأصلي.

الحماية⁷، حيث إن إظهار المحاسن، وإبراز المفاتن، يلهب العواطف، ويثير الغرائز، وقد يبعث أوهاماً هابطة، وظنوناً ساقطة، تكون سبباً في إرجاف المرء، لهذا أراد الله الحكيم أن يطهر تلك القلوب بقطع أسباب هذه الخواطر والهواجس، فشرع الحجاب، طهارة لتلك القلوب⁸

- لكن هكذا يمتهن حقك ويحط من

قاطعتها مستهترة بعد أن أفلتت ضحكة مني:

- وهل لبّ كرامتي تُختزل في لحمي وألوان ثيابي في رأيك؟ وهل حقّي في أن أعطي جسدي هو أمر يسقط كرامتي؟ ألا ترين أن استعمال المرأة في إعلانات الشامبو، والصابون، ومعجون الأسنان، وأدوات المطبخ، باستئثار أعين الرجال إلى مفاتنها من أعلى رأسها إلى أخصص قدميها هو أمر لا يمس من كرامة المرأة شيئاً!⁹

هزت كتفيها مشككة في صحة قلبي ثم مالت عني بنظرها، زمت شفتيها ثم صرحت:

- ألا ترين أن هذا الغطاء عدواً لحريتك، ألا ترين أنه يعقيك عن التعبير عن نفسك؟

رأرات عيني ثم قلت:

- وهل أدوات التعبير الانسانية هي:

- الصدر المكشوف والأفخاذ العارية والشفاه الحمراء!

هل أتكلّم معك بلساني أم بشعري المسدل؟

7 عودة الحجاب، محمد أحمد اسماعيل المقدم، ص 99
8 (إظهار الحق والصواب في حكم الحجاب، سعيد بن علي بن وهف القحطاني، ص 211.

9 الحجاب شريعة الله في الإسلام و اليهودية و النصرانية، سامي عامري، ص 36.

وهل أكتب في رأيك للتعبير عن نفسي بقلم الحبر الذي تملكه جميع النساء، أم بأدوات التجميل وصفائح المساحيق؟!
أخبريني بربك: هل أعجز لأنني فقط أستر جسدي من أن أكون مدرّسة نابهة؟! أو طبيبة عاملة؟! أو أديبة نابغة؟! أو صحفية بارعة؟!
هل أعبر عن أفكارى بقوامي الممشوق، ولباسي الضيق. ثم أردفت بسخط:

. لا أدري لماذا يختزل الكثير منا طاقات المرأة في شكلها الظاهر للعيون؟! ولماذا يجمع البعض طاقاتها لصالح مظاهر زائفة قد تتقن صناعتها أئفه النساء وأكثرهن بلادة؟!¹⁰

اصطنعت ابتسامة ثم قالت وهي تضع يدها على قلبها:

- أنا أؤمن أن الحجاب الحقيقي هو حجاب القلب، وليس مجرد قطعة قماش تُلقى على الرأس أو تغطي الوجه.

- إن إيمانك بأنه مجرد قطعة قماش تستر بها المرأة شعرات من رأسها أو وجهها، لهو قصور في تصوّر لك هذه الشريعة وأبعادها وأهدافها¹¹.

وما إن أتممت كلامي حتى أبصرت ملامح وجهها قد تغيرت، نهضت بتقاعس من المقعد، ثم استدارت وأعطتني بظهرها، وراحت تقول وهي تهتم بالخروج من الغرفة:
- أراك بخير.

التزمت الصمت لثواني ثم أوقفته وأنا أمسك بذراعها الأيمن، احتضنتها ثم دعوت الله في سري ودمعة تنساب من عيني:
"اهد قلبها وثبتني إلى أن ألقاك".

10 الحجاب شريعة الله في الإسلام و اليهودية و النصرانية، سامي عامري، ص 46.

11 الحجاب شريعة الله في الإسلام و اليهودية و النصرانية، سامي عامري، ص 50.

بعد مرور ثمانية أيام ...

في المطبخ حيث كانت تتجول رائحة الطعام كنت تارة أصغي لحديثهما وتارة لصوت مذياع الأخبار باهتمام، أخذت نفساً طويلاً ثم رحلت أقول وأنا أمسح حبيبات العرق العالقة في جبينني:

- وأخيراً أنهيت إعداد العشاء لضيفنا الذي أتى من دون سابق إعلام، ألقىت نظرة أخيرة على شوربة الخضار والطبق الرئيسي ثم رحلت أسكب صلصة الخل والليمون فوق السلطة، غسلت يدي بصابون سائل ثم جففتها ورحلت أرتدي حجابي ونقايي، رسمت بسملة على مبسمي ثم رحلت أحدث نفسي:

- كلما أتى جواد لزيارتنا استقبلته بنقايي وحجابي الفضفاض، أظنه سيخلف انطباعاً عني وحتماً سيفني بالفتاة الرجعية، هزنت كتفي غير مبالية ثم حدثت نفسي وأنا أهم بحمل الطعام:

- ما دمت أمشي في الطريق الصواب فلا تهمني آراء الناس، التقتت نفساً مشحوناً بالارتباك ثم زفرته وأنا اتجه نحو خوان ردهة البيت. وبينما كنت أسيرٍ وقع على مسمعي صوت القصف الجوي الذي صدر من شاشة التلفاز فرسم في مخيلتي مشهد إخراج جثمان عمتي سيرين من تحت الأنقاض.

فجأة أحسست برعب يتأجج في داخلي وشعرت أن الموت يقترب مني رويداً رويداً، ازدادت دقات قلبي وأصبح جسدي يتصبب عرقاً ويديا ترتعشان بشدة، تقدمت خطوة غير مكترثة فأحسست بدوار وثقل في رأسي، ترنحت ثم أوقعت صحن السلطة الذي كنت أحمله ورحلت أجوب ببصري زوايا ردهة البيت بحثاً عن ملك الموت الذي أحسست بأنه وفد للتو زائراً عندنا.

تسمرت في مكاني فهولت نحو عمي وجواد مصفراً الوجه، قالوا بصوت واحد بعد أن أصبحا بقربي:

- هل أنت بخير؟

في تلك اللحظة تلاشت الكلمات في فمي كسراب خادع، هزرت رأسي
نفياً ثم دفنت وجهي في صدر عمي، أحكمت شد قميصه كطفلة صغيرة
خائفة من قطة ثم قلت بصوت متقطع:

- أشعر أنني سأموت يا عمي...

الواحدة بعد منتصف الليل ...

على ضياء القمر الذي تسلل كالشبح من زجاج النافذة، استيقظت من
كابوس مرعب، قلبت بصري الزائغ في أركان غرفتي، ثم أزحت الملاءة
وأدليت بساقي على جنب السرير، هممت واقفة، فشعرت بشكل مفاجئ
بضيق في صدري وسرعة في خفقان قلبي، وضعت كفي فوق نحري، ثم
رحت أحاول التخفيف من سرعة تنفسي، بقيت واقفة لبرهة فراودتني أفكار
فظيعة، واعتقدت أنني سألفظ أنفاسي الأخيرة.

ارتجفت قدماي واصطكت ركبتي فهويت على الأرض باكية، حنيت
رأسي مدة وجيزة مختلجه من الدجى، ثم رفعت بصراماً بأسى ورحت
أحملق مرة أخرى في زوايا الغرفة بحثاً عن الموت الذي شعرت بأنه مندس
خلف الستائر...

نهضت ضامرة القوى ثم رددت البسملة، واتجهت مسرعة نحو الحمام،
ازددت رريقي بصعوبة حين ولجته، أنرت مصباحه، ثم توضأت وعدت
واجفة إلى غرفتي، ارتديت ثوب الصلاة ثم فرشت السجادة واستقبلت
القبلة، استقممت ثم كبرت وشرعت في صلاتي لكنني لم أستطع أن أخشع أو
أناجي ربي لأن بالي كان مشغولاً بفكرة الموت، ومصغياً للهواجس التي كانت
تردد في سمعي بعد ضحكات مدوية: "ستموتين يا إيثار".

قطعت صلاتي قبل أن أتمها كمجنون غارق في بحار أفكاره الجهنمية، ثم
فررت من دون أن أشعر إلى غرفة عمي، فتحت الباب من دون أن أستأذن،
ثم جثمت على ركبتي على جنب سريره وناديته مخلوعة القلب:

- عمي، استيقظ أشعر أن ملك الموت يلاحقني، أشعر أنه قادم ليأخذ روعي.

تقلّب على جنبه الأيمن ثم صحا بأنفاس متقطعة، أثار مصباحا يدويا كان على المنضدة، ثم وجهه باتجاهي فارتاع حين رأي، اعتدل في جلسته ثم قال وهو يفرك عينه:
- ما بك يا ابنتي؟

في تلك اللحظة غصت بدمعي ولم أجرؤ على التفوه بكلمة، ربت على كتفي وأعاد سؤاله بجزع:
- ما بك يا ابنتي؟

مسحت دموعي ثم قلت وأنا انهض:
- أشعر أنني سأموت يا عمي.



بعد نوبات هلع متكررة ...

بخيلاء حركت شعرها الأشقر، ثم قالت بعد جملة من الاستجابات التي أراحتني:
- تُعانين من رهاب الموت.

- وما سببه؟

حملقت إليّ ملياً، ثم جذبت نفساً وقالت:

. حسب الظروف التي مررت بها، فأنا أرجح أن يكون بسبب تبعات الحرب التي دُفنت في شخصك، وقد يكون جراء حزنك العميق على الأشخاص الذين فقدتهم. صمتت قليلاً، ثم استرسلت وهي ترتدي نظاراتها الطبية:

. كل ما عليك فعله هو أن تتقبلي فكرة الموت في حياتك، عليك أن تواجهيها، وتحرري نفسك من قيود القلق. ابتسمت ثم راحت تقول وهي تناولني وصفة طبية:

. هذا الدواء سيساعدك على خفض نوبات الهلع لكن لا تفرطي في استعماله، حبتين على الأكثر في اليوم. اعتدلت في جلستها ثم واصلت إسداء المزيد من النصائح قائلة:

- تجنبني الوحدة واخرجي مع أصدقائك للتنزه، تدريبي على الاسترخاء وممارسي الرياضة بشكل متواصل، كوني صادقة مع نفسك فالحياة تصبح أكثر قيمة حين تدركين أهميتها.

رسمت بسمة على مبسمها ثم، استطردت حين رأت الحزن ينبثق من وجهي:

- هيا أخبريني يا إيثار هل لديك أي هواية أو ميول؟

فكرت طويلا، ثم قلت:

- أكتب في بعض الاحيان؟

ثنت ذراعيها ثم قالت بعد نوبة عطاس واعتذار:

- ولماذا تكتنين؟

أجبتها باقتضاب:

. ليهدأ كل ما بداخلي.

- جيدا، إذن كل ما عليك فعله هو أن تسجلي كل الأفكار التي تمر ببالك حين تجتاحك نوبة هلع، ولا تهتمي لفظاعتها فكل ما يهمنا هو أن تتخلص منها ويهدأ داخلك كما ذكرت، وضعت الأوراق التي دونت فيها ملاحظاتها في حقيبة يدها معلنة انتهاء الجلسة، ثم انتصبت واقفة ومدت يدها نحوي وقالت:

. أتمنى لك الشفاء العاجل.

صافحتها بحرارة ثم قلت وأنا أهم بالوقوف:

- ممتنة لك...

قاطعت تخميني قائلة:

- اسمي كارولين ثم أضافت:

- بل أشكري جواد فهو الذي أصرّ على قدومي بعد أن أخبره عمك بأنك ترفضين الذهاب إلى أي اختصاصي نفسي.

انطفأ قنديل الثيا وها هي نباشير الصبح تلوح معلنة بداية يوم جديد، نهضت من سريري حين أتممت قراءة وردي القرآني، وضعت مصحفي الذي كان هدية من جدتي في رف المكتبة، ثم أزحت الستائر الأرجوانية وطوقتها بخيط غليظ كان ملحقا بها، فتحت النافذة ثم رسوت بالقرب منها متأملة شروق الشمس، قيدت تثاؤبا كان على وشك الخروج، ثم لمست كلتا ذراعي طلبا للدفع حين لطمتني نسمة برد قوية، بينما كنت أصعد طرقي وأقلبه في الشمس التي كانت تكشف عن قناعها دار في خلكي حلاوة ومرارة تلك الأيام التي عشتها رفقة جدتي، تذكرت حضنها الدافئ، وصفعتها القوية، تذكرت خصائل شعرها التي كنت أجدها والقبل التي كنت أنقشها على خدها كل صباح، تذكرت جدّها وهزلها، ضحكاتها وبكاؤها، غضبها وسكينتها، حزنها وسرورها، ابتسامتها وعبوسها، صبرها وجزعها، رقتها وقسوتها عندما يحل عقابها علي.

ملأت صدري أسي ثم زفرته، فتردد كالصدى في مسمعي صوتها الذي اشتقت له، وشعرت بحرقّة تستوقد قلبي، وسالت مدارف عيني، فرحت أحدث نفسي قائلة:
إني أفتقدك يا جدتي.



حين أتممت اعداد فطور الصباح أخذت إحدى مجلات الطبخ التي كانت في المطبخ، ثم اتجهت إلى ردهة البيت لانتظر قدوم عمي لتتناول إفطارنا معاً، جلست على الأريكة ثم شبكت رجلي ورحت أنصفح المجلة وبينما كنت أقرأ طريقة تحضير الكرواسو الفرنسي، وقع في أذني صوت نحننحه، رفعت رأسي فوق بصري عليه، قال وهو يلبس ساعة معصمه:

- صباح الخير.

افتّر ثغري وقلت:

- صباح الورد. وضعت المجلة جانبا، ثم جلست بجواره إلى مائدة الافطار، وبينما كنت أناوله فنجان القهوة التي أعدتها سرحت فيه بنظري فازداد يقيني بأنه شخص يبالغ في الاهتمام بمظهره على الرغم من طلائع الشيب التي بدت في رأسه.

سكبت الحليب الساخن من الإبريق الخزفي ثم نظرت إليه بمجامع عيني قبل أن أشرع في تناول إفطاري وقلت:

- عمي أسألك خدمتين.

لمعت أساريه، ثم قال والسرور يتدفق من وجهه:

- اطلبي ما تشائين فأنا تحت أمرك.

- أريد الذهاب لأقرب مكتبة لأقتني منها بعض الأدوات المكتبية ومجموعة من الكتب.

رد بلطف واقتضاب:

- لك ذلك.

تجرعت جرعة من الحليب الممزوج بالقهوة ثم رجعت ببصري إليه ورحت استرسل:

- هل تحسنت صحة ماريا؟

لمس ذقنه الخالي من اللحية ثم قال:

. لا أظن فهي لم تأت للعيادة البارحة.

لعت ملعقة من مربى التوت ثم وضعته في الخبز المحمس وقلت:

. أريد أن أزورها وأطمئن على حالها إذن.

حدق إليّ طويلا، ثم قال بعد رشفة رشفا من فنجان قهوته المرة:

- يمكنك الذهاب لكن ليس اليوم لأنني قررت أن آخذك في جولة إلى معالم الحي اللاتيني. رشف من فنجانه مرة أخرى، ثم أردف: في نهاية الجولة أعدك بزيارة مجموعة من المكتبات.

انهمر الفرّح من وجهي، شكرته ثم قبّلت رأسه تماماً كما كنت أفعل مع
جدتي عندما كانت تُسدي لي خدمة.

جواد

في إحدى مقاهي الحي اللاتيني - باريس -

بعنف ضربت كارولين بيدها، ثم قالت بصوت مرتفع ومتهدج:

. لماذا لا ترد على اتصالي؟ هل سأظل أبحث عنك في شوارع باريس كأم فقدت ابنها.

رميت بصري إليها، ثم قلت:

. هل فقدت صوابك؟ اجلسي واخفضي صوتك فأنت في المقهى ولست في حديقة بيتك.

وضعت نظاراتها الشمسية وحقبية ظهرها المزركشة فوق الخوان، ثم جلست بوجوم وأشاحت بوجهها عني، أخرجت هاتفها من جيب سروالي ثم قلت بتبرم:

. مع أنني لست مضطراً لأبزر لك موقفي لكن انظري إلى هاتفها ليطمئن قلبك، ألا ترين أنه في وضع صامت.

زمت شفيتها، ثم غضنت جبهتها وقالت:

. لا أصدقك، ثم استرسلت بسخط:

. لماذا تصر على إيذاء مشاعري؟ لقد بقي ثلاثة أشهر وبعدها ستعود أدراجك للجزائر. صمتت قليلاً ثم غيرت من نبرة صوتها راجية مني قبول طلبها:

. جواد دعنا نمضي هذا الأشهر رفقة بعضنا وأعدك أنها ستكون أجمل أيام عمرك.

انتصبت متذمراً من كلامها الفارغ، ثم قلت:

. أعتذر إليك كارولين لا وقت لديّ فمشاغلي كما تعلمين كثيرة. ثم
استطردت في كلامي بعد أن ألقيت نظرة على الساعة المعلقة على جدار
المقهى:

- عليّ أن أذهب الآن، تلمّمني بعض الأدوات المكتبية.
قاطعتني وهي تعدل تسريحة شعرها الأشقر:
- سأرافقك، لكن أمهلني خمس دقائق لأشرب شيئاً بارداً فأنا أشعر
بالعطش.



كانت الشمس قد صوبت للمغيب حين ولجت رفقة كارولين إلى المكتبة
التي اعتدت ارتيادها منذ أن استقر بي الحال في باريس، طلبت منها أن
تساعدني في اقتناء حاجياتي، ثم اقترحت عليها أن ننقل بحجة الإسراع
وعدم التماطل، وبينما أنا أقلب صفحات إحدى الكتب التي شدت انتباهي
سمعت صوتاً ينادي باسمي، رفعت رأسي فإذا به ياسر يتقدم نحوي، تبادلنا
التحية ثم مازحته بظرافة قائلاً:

- طاحت السماء على الأرض، منذ متى وأنت تترتد المكتبات؟
ضحك حتى بدت نواجذه البيضاء، ثم قال وثنياه تلمع:
- منذ أن عادت لي ابنتي.
حولت بصري عنه لأرى إيثار التي كانت تتقدم نحونا بلباسها المحتشم
فسألته قبل أن تصل:
. كيف حالها هل...

قاطعتني صوت كارولين الذي أتى من خلفي قائلاً:
- جواد هل أنهيت شراء مستلزماتك؟
أدرت وجهي ثم أجبتها باقتضاب وأنا أردد الكتاب إلى رفه:
- نعم.

أمسكت بذراعي ثم قالت وهي تحثني على الذهاب:

- لنسدد قيمة مشترياتك إذن.

تسمّرت في مكاني بعد أن أفلت يدي من قبضة كفها، ثم أشرت إلى ياسر ورحت أقول لها:

- هذا ياسر الذي أعمل عنده في العيادة والذي زُرنا بيته من أجل ابنة أخيه إيثار.

عبست، ثم أدارت وجهها غير مبالية بوجوده وقالت:
- مرحبا.

رفع ياسر حاجبيه وزمّ شفّتيه انزعاجا من تصرفها الفظ، أخذ الكتب من يدي إيثار التي وصلت للتو ثم قال:

- ألقاك غدا في العيادة، ثم انصرفا، فشردت بعض الوقت وأنا أرنو إليهما وهما يهمان بالخروج من باب المكتبة معا، حينها وكزتني كارولين بمرفقها على ظهري، ثم قالت بجبين ممتعض:

- لماذا تحدق إليها هكذا؟ هل أعجبك ذلك الغراب وأنا كالطاووس أمامك.

- في تلك اللحظة شعرت بالاستياء، ولم يرقني كلامها. أخذت مشترياتي منها ثم رحّت أقول بسخط لها:

. معتقداتي الدينية خط أحمر. ثم استرسلت بعد نفس طويل أخذته:
- كفي عن ملاحظتي يا كارولين.

إيثار

حين أتممت أداء فريضة العشاء شرعت في ترتيب الكتب التي اشتريتها اليوم في رفوف المكتبة، نزعت الكتب من الأكياس البلاستكية ثم وضعتها فوق مكثبي، أزحت الكرسي الخشبي إلى مكان الرفوف ثم سعدت فوقه لأرتب الكتب التي تباينت مواضعها كل حسب رفه، وبينما كنت أضع كتاب "نساء النبي" لبنت الشاطئ فوق الرف الذي خصصته للكتب الدينية دق عمي ياسر باب غرفتي دقة خفيفة، نزلت من الكرسي ثم فتحت الباب، وقلت بثغر باسم:

- تفضل.

ولج إلى غرفتي بخطى متثاقلة، ثم أسند ظهره إلى الحائط المقابل للنافذة وقال:

- ظننت أنك نائمة، لكن عندما مررت بغرفتك ورأيت الضوء ينبعث منها، قررت سؤالك إذا ما كنت قد قررت زيارة ماريا غداً.

جلست على سريري ثم أجبته باقتضاب:

- نعم، سأزورها إن شاء الله.

أخرج حمالة المفاتيح من جيب سرواله الرياضي ثم قال وهو يفصل أحدها عنها:

هذه نسخة من مفاتيح المنزل فلتحتفظي بها لنفسك. أرخى مفاصله، ثم أمال عنقه حين مس النعاس مقلته ثم تابع كلامه:

- تقيم ماريا في الطابق الثاني على الجهة اليمنى، ثم سكت وراح يعبث بهاتفه حين وصله إشعار رسالة فسألته على حين غرة:

. هل أحضر لك شاي الليمون الدافئ، فالإرهاق باد عليك جراء جولتنا الطويلة لهذا اليوم الرائع.

رمش بعينه ثم قال بعد أن تثأب:

- لا داعي لذلك، فقد أوشك النوم على تخييط جفون عيني، فرك عينه ثم تابع وهو يحشر هاتفه في جيبه:
- تصبحين على خير يا ابنتي.



الرابعة والنصف مساءً...

فتحت الباب، ثم خطت خطوة نحوِي، قالت وهي تلمس بكفها الدافئ وجهي الملتئم بالنقاب:

- أنت إيثار أليس كذلك؟

أحببتها بإيجاز والدهشة تتدفق من ملامح وجهي:
- نعم.

أمسكت بيدي ثم قالت وهي تتحسس الطريق بعصاها:

تفضلي بالدخول لقد كنت بانتظارك. ثم تابعت حديثها وهي تقودني نحو غرفة الاستقبال:

. لقد أعلمني عمك ياسر بقدمك، لكنني لم أخبر أُمي لأنني أردت أن تكون زيارتك مفاجأة لها، فأُمي قد أصبحت أحد المعجبين السريين بك، لن تصدقي لقد أصبحت تستر شعرها بشال كلما همت بالخروج لعيادة عمك أو للتسوق لشراء حاجاتنا المنزلية، مع أنني حاولت اقناعها مسبقًا بوجوب ارتداء الحجاب لكنها لم تقنع إلا بكلامك الذي وقع في قلبها. عدلت نظراتها السوداء ثم أردفت:

- لهذا قررت أن أستقبلك بنفسِي لأقتل فضولي الذي تأجج في عقلي نحوك.

أعطيتها باقة ورد الجوري وسلة الفاكهة التي اشتراها عمي خصيصا من أجلهما، وضعتهما فوق خوان مستدير ثم أقعدتني على الأريكة، وقالت وهي تمسك بدفة الحديث مرة أخرى:

- أنا مكفوفة، لذا لا تتحركي فقد قررت أن أرسمك في مخيلتي، ثم استرسلت بعد أن افترت ثغرها وهي تلمس أعضائي الحسية بيدها:

- حاجباك بهما فُرجة وهما ممتدان كأنهما خُطا بقلم، لك أنف مستوي وأرنبته صغيرة، كما أن عيناك واسعتان وتحيط بهما أهداب طويلة وهما شديدا السواد، أليس كذلك؟

بلى، ثم أردفتُ وأنا أبتسم لعفويتها:

- وكيف عرفت ذلك؟

تبسمت ضاحكة، ثم قالت: مجرد تخمين. مدت يدها لتصافحني ثم قالت برجاجة:

- اسمي جمانة وأنا ابنة ماريال الوحيدة. ثم واصلت التعريف بنفسها:

- عمري أربعة وعشرون سنة، طالبة في جامعة السوربون، فقدت بصري بسبب إهمال طبي وأنا في سن الثالثة من عمري حين كنت أعيش رفقة أمي في بيت جدي في الجزائر، تقول أمي بأنني فتاة انطوائية، أتدريين لماذا؟ لأنني أعزل نفسي عن الآخرين وأختلي في غرفتي مع الكتب، تظن أنني عاجزة عن التفاعل مع المجتمع، هي لا تعلم أن الكتب خير من مخالطة بعض البشر والإصغاء لثرهاتهم المسمومة، إنني فتاة تأنس بالكتب وهذا حسبي من الدنيا وما فيها، بترت كلامها حين توجست صوت شخص يجرجر قدميه، همت واقفة، ثم قالت بصوت عال:

. لدينا ضيف يا أمي، احزري من يكون؟

أجبتها من بعيد بعد نوبة سعال حادة:

- هل هو جواد؟

وقفت أمامي جمانة لتخفيني وتكون لي كالحاجز عن أمها، ثم قالت:

- كلا، بل شخص آخر يبدأ اسمه بحرف "إ".
في تلك اللحظة ولجت ماريا إلى الغرفة، قالت وهي تزلق بصرها نحو
ابنتها:

. عن أي ضيف تتحدثين. أنا لا أرى أحداً ثم استرسلت بنبرة ساخطة:
. لا تقولي لي بأن الضيف الذي أتى لزيارتي هو أحد أبطال الرواية التي
قرأتها مؤخراً.

ضحكت جمانة، ثم قالت وهي تتزحزح ببطيء من أمامي:
- إيثار ابنة أخ جارنا ياسر هي ضيفة شرفنا الليلة.

شبهت ماريا من شدة فرحها وانبلج الحبور من وجهها، تقدمت نحو
بخطوات فاترة القوى، ثم عانقتني كأَم التقت بابنتها بعد سفر طويل،
جلسنا فساد الصمت للحظات، ثم سقت لها قولي:

- أبلغني عمي قبل يومين بأنك مريضة، هل تحسنت صحتك؟

تنهدت، ثم قالت وهي تضع كفها فوق جبهتها:

- أصبت بحُمى برحت بي وأنهكتني لكنني تماثلت للشفاء والحمد لله،
ثم راحت تسألني:

- هل بدأت تتأقلمين مع حياتك الجديدة؟

أفرغت أنفاسي المفعمة بالألم، ثم قلت وأنا أرخي جفوني:

- ليس بعد فأنا أفتقد جدتي كثيراً وكل أفراد عائلتي الذين وارى التراب
جسداهم، إنني أشعر بالوحدة....

قاطعتني جمانة وهي تناولني كوب عصير بارد:

- ألا يمكنك التسجيل في إحدى الجامعات لإتمام دراستك؟

تنهدت، ثم قلت بحسرة: هذا مستحيل، فقالا بصوت واحد:

لماذا؟

. لأنني فقدت كل الوثائق والشهادات التي تخص دراستي حين اجتثت غارة جوية بيتنا.

. إذن حاربي وحدتك بقراءة الكتب.

ارتشفت رشفة من العصير بعد إصرار ماريا، ثم قلت:

- لقد تجهزت لذلك ثم، أضفت: لكنني مازالت عالقة في إرهاصات الدرب، وأنا بحاجة لمناضلة ذات عزيمة فذة.

رسمت ابتسامة في قسمات وجهها، ثم قالت حين فهمت مقصدي:

- يسرنى أن أمضي في مقدمة جيشك، جمعت خصلات شعرها البنية ثم واصلت حديثها وهي ترخيها:

- وهكذا سأثبت لأمي وطبيبي النفسي بأنني فتاة عادية ولست انطوائية.

تبادلتُ النظرات مع ماريا ثم انفجر ثلاثتنا ضحكاً.

العاشرة والنصف ليلاً.

بعد عدة محاولات فاشلة للاتصال به، دبّت وساوس السوء في عقلي، انقبض وجهي وأوجست في نفسي خيفة، إنها الليلة الأولى التي يتأخر فيها عن موعد عودته المعتاد، أخشى أن مكروها قد أصابه، سرت مجيئاً وذهاباً في ردهة البيت كجندي حراسة، حاولت أن أهدأ من روعي لكنني لم أستطع، ضربت راحة يدي ثم خاطبت نفسي بصوت عالي:

- ما الذي سأفعله حتى أطمئن على حاله فهاتفه مغلق، هل أطلب مساعدة ماريا أو أنتظره مزيداً من الوقت....

وبينما كنت أفكر في طريقة تطمئنني على حاله رنّ هاتفي فشعرت بالرهاب، واهتزت فرائصي لكن سرعان ما شعرت بالسكينة بمجرد أن رأيت رقمه يظهر على شاشة هاتفي، رفعت السماعة وفي قلبي شيء من الخوف والأمن، سمعت صوت جلبة، ثم جاءني صوته قائلاً:

- إيثار هل تسمعينني؟

أجبتة على الفور: نعم، أسمعك عمي.

- سأتأخر ولن أعود باكراً الليلة، لذا أخلدي للنوم ولا تنتظري قدومي.
ثم استرسل في عجالة من أمره: عندما يأتي جواد سلميه معطفي الرياضي
وحمالة مفاتيحي لقد نسيتهما فوق الأريكة الموجودة في غرفتي، ثم أنهى
اتصاله فسكن اضطراب قلبي، وتنفست الصعداء، ثم واتجهت بخفة إلى
غرفته وأنا أحمد الله في سري. فتحت الباب والنوافذ بغية تجديد الهواء في
الغرفة، ثم أخذت حمالة مفاتيحه، والمعطف الذي كان ملقاً فوق الأريكة
فسقط منه دفتر متوسط الحجم، التقطته فأبصرت على غلافه ورقة مكتوبة
بخط يده "ابنتي"، ازدردت ريقني، وكتمت نفسي ورحت أتكلم مع نفسي:
- ما زال يذكر ابنته، لكن من هي ولماذا ليست معه؟ هممت بفتح
الدفتر لأطلع على أسراره لكنني توقفت وقررت أن أسأل عمي عن ابنته في
حضوره...

بعد العديد من اللقاءات التي وثقت علاقتي بها...

أزعجني تأخرها المعتاد فوقفت وقفة المحتج يريد الدفاع على إحدى
حقوقه، أوصدت باب غرفتي، ثم استلقيت على سريري ولسان حالي لا يكف
عن التأفف، حدقت في ساعة الحائط، ثم رحلت أهدأ من وطأة تبرمي.
وبينما أنا أقلب طرفي في السقف دُق باب غرفتي دقات متواصلة، جهزت
توييخا يليق بلامبالاتها ثم أسرع لفتحه، قال بعد أن تمكنت من تجرع
غيظي:

- جمانة تنتظرك في ردهة البيت. ثم استرسل وهو ينزع ربطة عنقه:
طلبت مني أن أسمح لك بالخروج معها وقد أذنت لها، طبعاً إن لم تمناعي
فالأمر يعود إليك.

طبعتم ابتساماً في وجهي ثم قلت له:

- لها ما أرادت...

ارتديت حجابي وأسدت نقابي، ثم قصدت ردهة البيت وعندما أحست
باقترابي قالت بسرور:

- إيثار أهذه أنت؟

سلمت عليها وأنا أقول لها:

- نعم، لكن لماذا...

قاطعتني وهي توصل فمي بكفها ثم حثتني على الاسراع قائلة:

- لنعجل بخروجنا قبل أن يتوقف هطول المطر، لن تصدقي لقد راودتني

رائحة التراب المبلل بقطرات المطر. ثم أردفت بعد ضحكة خفيفة: أجلي

توييخك المعتاد عن تأخري المكرر لاحقاً.

أزحْتُ كفها بيدي، ورحت أقول لها:

- لكن ماذا عن موعدنا الذي خصصناه لنتأسى بالكتب؟

أمسكت بيدي، جذبتني إليها وراحت تقول برفق:

- سنأجله بعض الوقت.

جواد

- كنت في غيابة النوم حين أيقظني رنين هاتفي الصاحب، وضعت وسادتي فوق رأسي ليتضاءل صوته المزعج ثم تكورت في فراشي ودفنت جسدي تحت الملاءة وحاولت أن أسلم جفوني للنوم مرة أخرى فعاد هاتفي يصيح ثانيةً، أزحت الملاءة ثم انتصبت وأخذته بامتعاظ من جيب معطفي المعلق فوق باب الغرفة، رفعت السماعة وقلت:

- ألو. فلم ألقى ردًا من الطرف الآخر، قطبت جبیني وهممت بقطع الاتصال ففرع صوتها المألوف سمعي قائلاً:

- جواد أحتاج مساعدتك، ثم تابعت وهي تبكي:

- أنا في مآزق، أرجوك لا تترکني...

قاطعتها بقلق:

- وأين أنت كارولين؟

استرسلت في بكائها، ثم قالت: بالقرب من نافورة سان ميشيل.

صمت قليلاً لأفكر، ثم قلت لها وأنا أتوجه إلى الحمام:

- أربعون دقيقة على الأقل وسأكون بقربك، قطعت الاتصال، نزعنت ساعة معصمي، ثم وضعتها وهاتفي فوق غسالة الملابس، توضأت، ثم صليت الظهر الذي فاتني والعصر الذي أذن للتو، غيرت ملابسي واحتديت حذائي الرياضي، ثم خرجت قاصداً نافورة سان ميشيل.



بمكر ساذج ونشوة انتصار كاذبة قالت بعد أن تبادلنا التحية:

- وأخيراً تمكنت من اصطيدك، كنت واثقة من قدومك، ثم تابعت وهي تضع أحمر شفاه على شفيتها:

- في الحقيقة لست في مأزق، كل ما في الأمر أنني أردت أن نتمشى سوياً، رشت عطراً ذو رائحة أخاذة، ثم تابعت وهي تدلي بشعرها الذي غيرت لونه:

- الغيوم كثيفة وستمطر قريباً، ألم تخبرني قبل عام أنك تهيم بالسماء عندما تمطر.

رشقتها بنظرة واجمة ورحت أحدثت نفسي:

- أحقق من يصدق دموع النساء، سألتها وأنا أقتح غضباً:

- لماذا كذبت؟

نقشت ابتسامة على وجهها الذي أرهقته بكثرة المساحيق، ثم قالت بركانة:

- لأنني كنت أعلم أنك سترفض طلبي.

زفرت بغضب، ثم قلت بحنق:

- ربّ عذر أقبح من ذنب، ثم أردفت وأنا قاطب الجبين، منزعج من تصرفها:

- طلبك مرفوض إذن، وضعت يدي في جيوب سروالي غير مبالي بها ثم، وليتها ظهري لأعود من حيث أتيت، مشيت مقدار أربع خطوات فشعرت بأنها خلفي تتبعني، أسرع في سيرتي لكنها لحقت بي وسرعان ما صدت مشيتي بوقوفها كالتمثال في وجهي، قالت بعد أن أدركت أن كل محاولاتها في إيقافني قد ذهبت أدراج الريح:

- أريدك أن تحدثني عن الإسلام، ألسنت تحاول منذ أن تعارفنا أن تدعوني إليه.

أخذت نفساً عميقاً، ثم قلت:

- إنها المرة الألف التي تطلبين فيها مني نفس الطلب...

قاطعتني قائلة:

- أتشك في صدقي يا جواد، ثم استرسلت وهي تفتح حقيبة يدها:

- كدّب ظنونك هذه المرة ولا تخيب ظني.

زفرت بتذمر، ثم قلت وأنا أحاول التخفيف من سرعة سيرتي:

- وهل اطلعت على آخر الأوراق التي كانت تحت عنوان توحيد الله؟

- نعم، لكنني لم أفقه بعضاً منها، أخرجت الأوراق من حقيبتها، ثم

قالت وهي تناولني إياها:

- لقد سطرت بقلم رصاص كل كلام مبهم لم أفهمه.

قَبَّلت الأوراق ورقة، ورقة ثم قلت وأنا أعرض عنها بطرفي:

- ستمشى ببطيء وسأشرح لك كل كلام استعصى عليك.



حين أتممت شرحي المستفيض حول توحيد الله عز وجل، طفق المطر في الهطول، تسمرت في مكاني ثم رفعت رأسي إلى السماء، أطبقت عيني وقلت في سري:

- اللهم صيباً نافعاً، التفت عن يميني ثم قلت لكارولين وأنا أناولها

الأوراق:

- هل أصبح كل شيء واضحاً الآن؟

أومأت برأسها، ثم راحت تؤكد: نعم، شرّعت مطريتها السوداء وتحصنت بها من رذاذ المطر ثم نظرت إلي بطرف خفي وقالت:

- اقترب من المطرية فالمطر قد يشتد وقد تُصاب بالزكام...

هزرت كتفي غير مبالٍ بنصيحتها، سرحت بنظري في السحاب المتراكم،

ثم أجبته:

- أفضل السير وهي تمطر بغزارة.

اصطنعت ابتسامة باهتة في وجهها، صكت أسنانها ثم قالت:

- إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى شقتي.

- سأرافقك نصف الطريق، صمتت لحظة، ثم أضافت وهي تدي
بمبرراتها بعد أن حدجتها بنظري مستغرباً من قرارها :

- سأزور صديقة قديمة لي تقطن في نفس المكان الذي تُقيم فيه.

قطعنا الطريق، ثم واصلنا سيرنا رفقة الصمت الذي منع أفواهنا من
الكلام، أطرقت رأسي، ثم استسلمت لما كان يمر في خاطري من أفكار وبينما
كنت غارقاً في شرودي قالت لي كارولين بصوت خافت:

- جواد أليست تلك الفتاة هي نفسها إيثار التي أصرت عليّ أن أزورها
حين رفضت الذهاب إلى أي اختصاصي نفسي، وما إن أمّمت جملتها حتى
أخذتني شرقة فكادت روعي أن تصعد للسماء.

ضحكت كارولين عندما رأت ردة فعلي بهستيرية، قالت بعد قهقهة
وجيزة

والغضب يعصف بقسمات وجهها:

- سيد جواد لقد ظهرت على حقيقتك، فكلمنا التقيتها وكنت أنا برفقتك
لاحظت تذبذباً واضطراباً في أحاسيسك، ثم أضفت وهي تعد بأناملها التي
زينتها بطلاء لونه أحمر قاتم:

- في المكتبة، وفي حديقة النباتات، وبعوار جامعة السوربون واليوم على
يسار نهر السين، غضنت وجهها، ثم استأنفت:

- جنيت على نفسك يا جواد وأثبت لي اليوم كم أنت معجب بها،
أشاحت بوجهها، ثم أردفت بتهكم وأنفاسها تتقطع غيظاً:

- ما العجب فيها وهي كلما حاولت أن تقترب منها لمحت جفاء
منها وصدوداً عنك.

أزلقته ببصري فرمت شفيتها وعقدت حاجبها بسخط ثم قالت قبل
أن تنصرف:

- أعدد مراجعة حساباتك يا جواد، فمن حماقة أن تربط سعادتك
بالأشخاص الذين لا يقيمون لك وزنا ولا يكرثون لمشاعرك.

إيثار

السادسة والنصف مساءً ...

رست بالقرب من النافذة، ثم قالت وهي تضع يدها على زجاجها
الغليظ:

- لم تتوقف السماء عن الهطول وكأنها استعارت جفون المحبين. أخذت
نفساً طويلاً ثم راحت تضيف:

- على ذكر المحبين يا إيثار هل جربت مذاق الحب؟ فتحت فمي لأطلق
سراح كلماتي إلا أنها قاطعتني واستطردت:

- إياك أن تجربيه فمذاقه مرّ كطعم الحنظل، ضحكتُ ملء ما فيّ، ثم
سألته وأنا أفتح خزانتي لأغير ملابسني التي بللها الودق:

- تلك الفتاة التي تُلازم جواد في أغلب أوقاته هل هي خطيبته؟
- تقصدين كارولين؟

- نعم.

خبأت قهقهة كانت على مشارف البزوغ من حلقها، ثم قالت وهي تفتح
النافذة:

- لا أظن ذلك فجواد ليس من ذلك النوع الذي تستهويه الفتاة الغربية.
سعلت ثم أضافت:

- أخبرتني أُمِّي بأنه تعرف عليها عندما حاول إنقاذها من الموت حين
دهستها سيارة رجل ثمل وعلى حد علمي أسعفها جواد حين عثر عليها في
إحدى شوارع باريس ولولا تدخله لمَّا نجت كما تزعم هي، وبدورها شكرت

صنيعه وتقربت منه، صمتت برهة وجيزة ثم رفعت حاجب دون الآخر
وقالت:

- لم السؤال؟

اربد وجهي من شدة الخجل، ساد الصمت هنيهة ثم طمسته بنحنة
محرجة من سؤالي الأخرق وقلت:

- مجرد فضول.

تهنّدت، ثم قالت وهي تتحسس الطريق بعصاها نحو سريري:

- أظنها متيمة به على الرغم من أنها تكبره سننا، زممت شفّتي مستاءة
من نبئها فواصلت بانكسار وكأنها تذكرت شخصاً عزيزاً أحدث لها شرخاً
واسعاً في فؤادها:

- ما عاد الحب يكفي ليعيش الناس بسلام.

استلقت على سريري، ثم وضعت ذراعيها فوق رأسها وراحت تقول
وهي تدلي بساقيها جانب السرير:

- دورك لتلتهمي جزءاً جديداً من الكتاب الذي وقع عليه اختيارنا لنقرأه
مع بعض.

سرحت شعري، ثم سألتها على حين غرة:

- وأين توقفنا أيتها المناضلة؟

نقرت ناصيتها بسبابة يدها اليمنى، ثم قالت:

- في بداية محنة الإفك أيتها القائدة.

ربطت شعري ثم أخذت كتاب نساء النبي من رف المكتبة، تربعت فوق
الأرضية وأرخيت مفاصلي، شربت كأساً من الماء، ثم أسندت ظهري إلى
الحائط، ورحت أقلب صفحات الكتاب بتأنٍ، قلت حين وجدت الصفحة
التي توقفنا عندها:

- سأقرأ بصوت عالٍ لذا أصغي إليّ بقلبك وأدلي لي بسمعك...

بعد مرور شهرين...

أقبلت صنابر الشتاء، وها هو يكشر عن ناب الزمهرير ويفرش الأرض
بندف الثلج..

أوقدت المدفأ الذي في ردهة البيت، ثم ارتديت جواربي وتذثرت
بوشاحي القطني، استلقيت على الأريكة واحتسيت رشفة من شاي الليمون
الساخن الذي أعدده للتو، ثم رحلت أتم قراءة كتابي الذي شرعت في قرأته
منذ يومين لكنني سرعان ما طويته ووضعتة جانبا حين شعرت بحجم الفراغ
الذي خلفته جمانة التي ذهبت لتقضي عطلة الشتاء رفقة أجدادها في
مدينة تلمسان الواقعة - كما أعلمتني في إحدى رسائلها - غرب الجزائر...

التقطت نفساً، ثم أطبقت عيني فغشيني القلق حين رسمت في مخيلتي
صورة عمي الذي اعتل منذ بداية الشتاء، فتحت عيني باضطراب ثم أطلت
النظر من دون أن أطرف بهما في باب غرفته فتسرب صوت سعاله الحاد
إلى أذني فهرولت إليه، دقت الباب وقلت بقلق:

- عمي هل أنت بخير؟

رد بصوت متحرج:

- أدخلي يا أيتار ولا تشغلي بالك...

رسمت بسمة على مبسمي، ثم دخلت وجعلته قيد عياني فاغرورقت
مدامعي وكدت أن أبكي على وهن صحته وُضعف بنيته التي نخرها المرض،
تقدمت نحوه، جلست على طرف سريره ثم قلت:

- دعنا نعود لطبيب القلب فصحتك تأبي التحسن.

أوماً برأسه رافضاً لطلبي، ثم قال بعد نحنحة طويلة:

- أنا بخير، ثم واصل كلامه قرير البال: الأسبوع القادم سأعود للعيادة

فقد اشتقت إلى ممارسة عملي بين آلات الأشعة، أشار إلى هاتفه، ثم قال:

- ناولينني إياه فقد نسيت أن أطمئن على حال جواد، شكل رقمه ثم

أردف وهو ييوح بمكنون مشاعره:

- إن لذلك الشاب موضعا في قلبي.

ابتسمت، ثم رحت أحدث نفسي قائلة قبل أن ينهي اتصاله معه:

- لست وحدك يا عمي فحتى أنا قد صافيته الود على الرغم من أنني لم أجالسه ولم أبادله أطراف الكلام...

وضع الهاتف فوق المنضدة حين أتم حديثه الموجز، ثم أزاح البطانية وأدلى بساقيه وقال:

- إيثار ساعديني على النهوض أريد أن أتحرك فقد سئمت من كثرة الاضطجاع والقعود.

استند بيده على المنضدة بينما أنا أمسكت يده الأخرى لأمكنه من الوقوف فأنحدر من سريره الدفتر نفسه الذي سقط من معطفه تلك الليلة، التقطه بسرعة فسألته بغتة بعد أن دسه تحت وسادته:

- عمي نسيت أن أسألك هل لديك ابنة على قيد الحياة؟

أمال رأسه إلى صدره بانكسار، ثم أطرق كأنها على رأسه الطير فشعرت بخلل يجتاز نفسي، صمت لبرهة ثم قلت، بتأسف:

- لا أدري لماذا تصرون على إخفاء أمرها عني؟ ثم استطردت وأنا أحملق فيه:

- هل طليقتك حرمتك من رؤيتها؟ أخبرني يا عمي فلربما استطعت ردّ شملكما.

تقاطرت دموعه وبكى حتى كاد أن يشرق بهاء دمه، أزاح يده التي كانت له كالسند فترنح وكاد أن يهوي لولا أنني أجلسته على سيره، تغير وجهه ثم راح يعنفني على تطفلي، قال وهو يشدد وطأته علي:

- أخرجي يا إيثار فأنا لا أريد رؤيتك.

أعطيته ظهري، ثم ركضت نحو غرفتي باكية وقلبي يرق على حاله...



استيقظت على دوي الرعد الذي أفزعني وهز كياني، كان الليل قد ضرب
بظلامه وغرق البيت بسواده الحالك فأيقنت أن العاصفة الرعدية قد
تسبب في قطع التيار الكهربائي، نهضت من سريري فاصطكت أسناني
وتشجنت أصابعي وأخذتني رعشة من شدة البرد القارس، قصدت المطبخ
وأنا أتحمس بيدي الطريق نحوه حين تذكرت أنني تركت هاتفي فوق
الخوان عندما كنت أعد شاي الليمون الساخن، فتحت باب غرفتي فتربع
الخوف في قلبي وتاه فكري في العتمة، خطوط أربع خطوات واجسة، ثم
ارتطمت بشيء لم أتبين ما هو، تمايلت ثم جثمت جاثية على ركبتي فتأوهت
بشدة.

وبينما كنت أزمّل موضع الألم وأنا منحنية الظهر، أنيرت مصابيح العُرف
غرفة، غرفة، فتنفست الصعداء، اعتدلت في جلستي، ثم رفعت رأسي
فشخص بصري عندما أبصرته، كان ممتقع اللون وممددا على الأرض وكانت
أطرافه منحنية كالقوس، اقتربت أكثر منه فكاد أن ينشق صدري من الذعر
عندما اجتليته بعيني.

في تلك اللحظة خانني الصبر وضافت عليّ المسالك، وضعت رأسه فوق
حجري ورحت أبكي بدمع الثكالي حتى تبللت ناصيته، مسحت على رأسه
ثم قلت بعويل وأنا أحاول ايقاظه:

- من لي من بعدك يا عمي...

جواد

كان قد مضى هزيع من الليل حين شرع النوم في التخييم بين عيني وجفوني، أطفأت الشموع التي أشعلتها عندما قُطع التيار الكهربائي فجادني النعاس وترنحت من شدته، نزعت نعلي ثم انبطحت فوق السرير على بطني وأرخيت يدي على جانبيه فاهتز هاتفني الصامت فخيل إلي أنني أحلم فتابعت الانغماس في نعاسي، اهتز مرة أخرى فمددت يدي إلى المكتب، ثم رحلت أنحسس بيدي مكانه وحين وجدته التقطته من بين الأوراق المبعثرة، نظرت إلى الشاشة بعين مغلقة وأخرى مفتوحة فأبصرت رقم ياسر فذهلت فليس من عادته الاتصال بي في وقت متأخر، اعتدلت فوق سريري، ثم رفعت السماعة من فوري فوقع في أذني صوت شجي سرعان ما تحول إلى نحيب، في تلك اللحظة تخشبت أطرافي وحبست نفسي وكتمته، لجت في الاستعبار، ثم قالت بصوت متقطع:

- جواد، فأيقنت أن المتصل إيثار وليس عمها ياسر.

أجبتها وأنا أدلي بساقي على جنب السرير:

- نعم.

صمتت وتركتني أصغي لمعزوفة أنينها، علا نحيبها ثانية فلم أجراً على أن أنبس بكلمة، رنت، ثم قالت مستنجدة:

- أريد مساعدتك فعمي ياسر بين دفتي الموت والحياة...

الرابعة والنصف صباحاً ...

كعصفورة لم تجد وكرأً لتحتمي به من يوم عاصف كانت تجلس في إحدى المقاعد المخصصة للانتظار مطرقة الطرف مرتعدة القوائم من شدة البرد، دنوت منها ثم دثرتها بمعطفي وجلست بجانبها بعد أن تركت مسافة بيننا تُقارب المتر، أشاحت بوجهها الملمثم بالنقاب، ثم وقفت وابتعدت مسافة قصيرة عني، قالت بأسى وهي تمسك بذراعها:

- ألن يسمحوا لي برؤيته؟

أجبتها وأنا أتفحص ساعة هاتفي:

- لا، فحاله لم تستقر بعد، ثم استطردت حين رأيت الارهاق بادياً عليها:

- دعيني أوصلك للمنزل إن أردت ولا تقلقي فأنا سأعني بياسر فهو بمثابة أبي.

التفتت نحوي، ثم قالت وهي تبكي:

- من المستحيل أن أتركه لوحده فلا تحاول، كتمت شهقتها، ثم عادت

للجلوس مرة أخرى وهي تُكفكف دمعها، أسندت ظهرها على المقعد، ثم

أغمضت عينيها وتمتمت بدعوات ثم استسلمت للنوم ...

إيثار

حركت ساقي المتورمة فجهرت بتأوه، ثم ابتلعتة حين تذكرت أن جواد جالس بقربي، تسمرت أطرافي استحياء منه، التفتت عن يميني فوقع بصري عليه، كان يجلس بيدين مفتوحتين وعينين ترفضان الخنوع للنوم، توسمني للحظات فارتبكت، خفضت رأسي ثم رحمت أظواهر بتعديل نقابي...

وقف ثم سار بأكتاف مشدودة عندما لمح إحدى الممرضات التي كانت تعتنني بعمي كما بدا لي، تحدث بإطناب معها ثم تقدم نحوي بخطوات واثقة، قال برصانة بعد أن تمكن من خرق جدار الصمت الذي كان بيننا:

- بلغني أن وضع ياسر الصحي قد استقر، ثم أردف ببشاشة وهو يلبس

معطفه:

- يمكنك رؤيته فقد سمح الأطباء بذلك.

وما إن أتم زف خبره حتى شعرت أن روحي قد ردت إليّ، حمدت الله

ثم قلت بحبور وأنا أنهض:

- إذا فلنذهب إليه.

حول بصره عني، ثم قال وهو يحشر كلتا يديه في جيوب معطفه:

- اتبعيني.

امتثلت لأمره ومشيت إلى جنبه، نزع نظاراته، ثم فرك عينيه اللتين

مضمضهما النعاس بأنامله وقال:

- لقد أجريت له الفحوص اللازمة وغداً ستظهر النتيجة.

سألته بعد أن استعدت رباطة جأشي:

- ومتى سيخرج من المستشفى؟

أجاب وهو يجحدني بطرفه:

- بعد يومين إن تماثل للشفاء طبعاً.

انعطفنا يمينا، ثم تابعنا مشينا في رواق ضيق إلى أن توقفنا بالقرب من باب الغرفة التي يرقد فيها عمي، دون رقم هاتفه على ورقة كان يحتفظ بها في جيبه، ثم قال باتزان:

- إذا احتجتما إلى المساعدة فلا تترددي بالاتصال بي، ثم همّ بالذهاب فأوقفه:

- ألن تدخل معي لترى عمي؟

أجابني وهو يعبث بهاتفه:

- عدته عندما كنت نائمة.

ثم استدار بعد أن شكرته وغادر، في تلك الاثناء أطلقت زفيرا ثم قرعت الباب وولجت إلى الغرفة حين سمح لي عمي بالدخول، أدت فيها بصري هنيهة، ثم ثبتته عند الآلات التي كانت موصولة بأنايب تصفد يده فتجمدت في مكاني.

استقام بجسمه المنهك، ثم قال:

- اقتربي يا إيثار.

ازدلفت إليه وأنا أمعن النظر في الدمعة التي كانت على أسكفة عينيه، خففت له جناح الرحمة في قلبي وقبلت رأسه الذي طرزه المشيب، ثم طبعت قبلة على كفه الذي بدأت تظهر عليه بعض التجعيد، قعدت على طرف سريره وقلت بثغر باسم:

- حمداً لله على سلامتك.

سكت لدقائق، ثم استأنفت وأنا أبكي:

- ظننت أنني سأفقدك مثلما فقدتهم.

مد يده المرتعشة نحوي، ثم قال وهو يمسخ دموعي:

- لن أسلم نفسي للموت قبل أن...

بتر كلامه قبل أن يتمه فجأة، طأطأ رأسه ثم أردف:
- أعتذر لأنني عنفتك بقسوة.
وضعت كفي فوق كفه ثم قلت:
- لا بأس فأنا أعتبرك مثل أبي.



بعد مرور شهر كامل...

انصرفت أيام برد العجوز، وها هو الربيع يبتسم ليهج الوجوه التي
أعبسها الصقيع...

كنت منهمكة في كيّ ملابس عمي بالملكوة حين سمعته يهتف باسمي،
وضعت كل من الملابس والملكوة جانبا ثم هرعت إلى ردهة البيت حيث
كان يجلس أمام شاشة التلفاز، ثنى ركبته تحت فخذه وقال:

- أتذكرين كارولين تلك الأخصائية النفسية التي أتت رفقة جواد
لتشخص مرضك؟

- نعم، وكيف لي أن أنساها؟

خفض صوت التلفاز بجهاز التحكم عن بعد، ثم تابع حديثه قائلا:

- لقد أتت لزيارتي اليوم في عيادتي وقد طلبت مني أن أنسق معها لنقيم
حفل توديع يبقى في ذاكرته.

رفعت كلا حاجبي، ثم سألته باستغراب:

- توديع من؟

ضيق عيناه وقال:

- جواد.

انقبض قلبي في تلك اللحظة، ازدردت ريقتي، ثم سألته وقد بدت في
وجهي أمارات الضيق والانزعاج من خبره:

- إلى أن سيذهب؟

أخرج نفسا مشحون بالحسرة، ثم قال باقتضاب:

- سيعود للجزائر.

- وهل سيرجع إلى باريس؟

- كلا.

في تلك اللحظة خذلتني رجلاي فهويت على الأريكة وشعرت أن قطعة من قلبي قد تهشمت وتناثرت كشظايا الزجاج في الأرضية، سألته وأنا أعتدل في جلوسي:

- وأين ستقام الحفلة؟

- في بيته.

وما إن أتم كلمته حتى رن جرس الباب ثم فُرع، هممت بفتحه لكن عمي أوقفني وراح بنفسه ليري ضيفنا، وبينما كنت منغمسة في تفكري انتشلني عمي حين وضع يده على كتفي، قال بثغر باسم وهو يحدق في ساعة معصمه:

- هلاً أسديت لي خدمة؟

- اطلب ما شئت فأنا تحت تصرفك يا عمي.

تبسم ضاحكاً، ثم قال:

- جميعنا قرر ابتياع هدايا قيمة من أجله وأنا كما تعرفين شخص لا يُحسن اقتناءها، صمت لحظة ثم أضاف:

- هل تستطيعين اختيار هدية لجواد تبقى له كذكرى منا طيلة حياته.

التهمت نفسا طويلاً ثم أجبتة بإيجاز:

- نعم.

تهلل وجهه وأشرق جبينه، قال وهو يحثني على الاسراع:

- لنسرع إذن فماريا وجمانة بانتظارنا في أسفل العمارة.



بعد مرور يوم ...

- تعالت زفرات الغضب منها، زمت شفيتها وقطبت حاجبيها ثم انتصبت واقفة وقالت بخيبة أمل بعد أن فشلت كل محاولاتها في إقناعي: - ما كنت أتوقع أن تتركيني أذهب للحفل من دونك، ثم استطردت مغلظة وهي ترتدي نظاراتها: إن سألني جواد كعادته عنك فسأخبره بأنك رفضت توديعه، ثم استأنفت بحقن:

- أين الهدايا التي اشتريتها البارحة؟
أجبتها:

- فوق مكتبي، ثم تابعت وأنا أمسح دمعة انحدرت على خدي:
- ثمة مصحف في درج مكتبي، ضعيه ضمن هداياكم، وإياك أن تخبري جواد أنه مني.

تأففت، ثم تولت عني قاصدة غرفتي.

التقطت نفسا ثم زفرته بأسى، خرج عمي من غرفته ثم قال وهو يعدل تسريحة شعره أمام المرأة: إيثار لماذا لم تجهزي نفسك لم يتبق سوى نصف ساعة عن موعد الحفل.

أشحت بوجهي، ثم قلت وأنا أحتضن بأصابعي فنجان قهوتي:
- لن أذهب معكم، فأنا أشعر بالإرهاق يا عمي.

هز كتفيه ثم قال:

- لن أتأخر...

قاطعته جمانة، وهي تضع أكياس الهدايا فوق خوان ردهة البيت:
- من فضلك، هل تستطيع أخذ الهدايا معك؟ أظن أنني سأتحلف أنا وأمي عن موعد الحفل بعضا من الوقت.

رد عمي وهو يعدل ربطة عنقه الحمراء:

- بالطبع.

أطرقت جفوني محاولة إخفاء دموعي، ثم اتجهت إلى غرفتي.

جواد

لم يتبق لي سوى ساعات معدودات بعدها سأعود من حيث أتيت، حضرت فطور الصباح، ثم اتجهت نحو غرفة المعيشة فاستقبلتني كومة من أكياس الهدايا الموضوعة فوق المائدة، أملت رأسي، ثم تساءلت بسأم:

- ترى لماذا لم أفتحها حتى الآن، زممت شفتي، ثم أضفت بصوت جهوري: ربما لأنني محبط من إيثار التي لم تكن ضمن الحاضرين في الحفل. وضعت الحليب الممزوج بالنسكافيه فوق المائدة، ثم ازحت الكرسي وقعدت، رشفت من فنجاني رشفة ثم التقطت الكيس الأكثر بهرجة من بين كل أكياس الهدايا وحزرت قبل أن أطلع على محتواه أن يكون لكارولين فهي صاحبة ذوق رفيع، فتحته، ثم أخرجت علبتين مغلفتين لكنني سرعان ما تفاجأت حين وجدت كتاب زبدة التفسير لكاتبه سليمان الأشقر ضمن محتويات الكيس، رفعت حاجب دون الآخر مستغرياً، ثم رحلت أقلب صفحاته، فأنحدرت منه مجموعة من الأوراق على ركبتي، التقطتها بفضول ثم رحلت أطلع على محتواها، كانت مجموعة من الخواطر كما بدا لي...

وبينما كنت أقلب باقية الأوراق شخص بصري على خاطرة تحت عنوان "ابتغاء مرضاة الله"، ازدرمت ريقني ثم رحلت أقرأها بصوت مسموع لأرضي فضولي المتطفل...

حين أتممت قراءتها أيقنت مدى طهارة قلب كاتبها، فركت شعر رأسي محتاراً، ثم تساءلت وأنا أعيد الأوراق إلى طيات الكتاب:

- أيعقل أن تكون لإيثار؟ لكن من هذا الذي كتبت من أجله هذه الخاطرة، لاحظت ابتسامة ساخرة على شفتي ثم حدثت نفسي:

- من المستحيل أن أكون أنا، فهي دائماً تتجاهلني.

جذبت نفساً طويلاً، ثم انتصبت واقفاً وخرجت إلى الشرفة لأستنشق الهواء حين شعرت بالضيق، وبينما كنت أتأمل السماء المملوءة بالغيوم رن هاتفني، رفعت السماعة من دون أن أثبت بصري في شاشته فورديني صوت جمانة ابنة قريبة أمي ماريًا، قالت بنبرة يشوبها القلق بعد أن طمأنتها على حالي:

- جواد هل وجدت كتاب عنوانه زبدة التفسير ضمن هدايا ياسر؟
أجبتها باقتضاب:

- نعم.

نفثت نفساً عميقاً، وراحت تكمل:

- وهل وجدت مجموعة من الأوراق بين طياته؟
رفعت رأسي إلى السماء حين شعرت أنها تمطر، ثم قلت:
- نعم.

صمتت كأن القطة أكلت لسانها فسألتها بفضول:
- لما تسألين؟

- في الحقيقة ...

ثم استرسلت بثبات جنانها:

- إيثار طلبت مني أن أضع لك مصحف ضمن كيس هداية عمها ياسر وأخبرتني بأنني سأجده في درج مكتبها، ثم استطردت بضيق:

- لكنني عندما فتحت الدرج وجدت كتابين فاخترت واحداً من بينهما من دون أن أتأكد إن كان هو المصحف أم لا.

عادت للصمت مرة أخرى، ثم واصلت حديثها قائلة بصرامة:

- جواد ثمة مجموعة من الخواطر التي وضعتها إيثار بين طيات الكتاب الذي بحوزتك، عدني ألا تقرأها من فضلك، فإيثار لا تكف عن البكاء منذ أن علمت أنه عندك، تقول بأن تلك الأوراق تحتوي على أسرار تخصها ولا يجب أن يطلع عليها أي أحد.

ازدردت رريقي بصعوبة، ثم قلت وأنا أضرب الحائط بقبضة يدي:
- أعدك، ثم أردفت وأنا ألج الشقة: ألا يمكنني الالتقاء بك قبل الساعة
الثانية زولا، أي قبل موعد سفري، وذلك من أجل أن أعطيك إياه، وترجعيه
إليها؟
— لا أستطيع ذلك، فأنا بعيدة عن مكان إقامتك، ثم أنني مشغولة
بالتحضير للامتحان الذي سأجريه على الساعة الواحدة.

الفصل الثالث

نهلة

بعد مرور عام ...

- الدوحة -

ليت النسيان جرعة دواء نتجرعه في الصباح لننسى في المساء، ليته
كالملايس نرتديها ونزعاها متى نشاء...

رحلت يا أبي وتركتني مسجونة في سرايب الماضي، أعيد في كل يوم
استعراض ذكريات منه، أفتش تارة فيه، وتارة أذرف الدمع على رعونتي،
أكان قدري أن أعيش اثنتين وعشرون سنة من دونك أم أنهم سلبوك مني
عنوة يا حبيبة قلبي...

ما زال كل شيء محفورا في ذاكرتي يا ابنتي، ففي ظهيرة يوم الخميس
من شهر أكتوبر لعام ألف وتسع مئة وسبعة وتسعين جاءني المخاض قبل
موعده فاستبشرت بقدومك الذي انتظرتة طويلا، لكنني حين وضعتك
بلغني الخبر الفظيع بموتك، فتصبرت استسلاما لأمره بعد أن أحرق البكاء
كبدي وكدت أن أفقد عقلي لولا لطف الله الذي حل بي...

قُرع باب غرفتي، ثم جاءني صوت أختي شفق التي قررت أن تقيم رفقة
أسرتها في بيتنا من أجل الاعتناء بصحتي النفسية التي تدهورت منذ أن توفي
أبي ولحقته أُمي بعد شهر تقريبا، فتحت الباب ببطء حين لم تلق ردًا مني،
ولجت كسارق متسلل، ثم أزاحت الستائر فطغى النور في غرفتي الغارقة
في الظلام منذ علمت أن لي ابنة، اقتربت مني، ثم قالت بفزع وهي تحديق
في وجهي الشاحب:

- لماذا تصرين على دفن نفسك بين جدران غرفتك المظلمة، ثم استطردت
وهي تلتقط صور زفافي التي مزقتها:

- لقد وصلت للتو حليلة وهي تريد رؤيتك.
سترت وجهي بالملاءة ثم أجهشت بالبكاء ورحت أقول لها:
- أخبريها أن نهلة قد غادرت الحياة منذ أن عرفت أن لها ابنة.
مدت نفساً قصيراً ثم قالت وهي تجلس على سريري:
- ليس من الأدب أن تتجاهلي من يسأل عن حالك، لقد أتت من أجلك
على الرغم من كبر سنها، صمتت هنيهة ثم استرسلت:
- لا تكوني أنانية على الأقل احترمي روح أمي الراحلة فحليلة كانت
أقرب الصديقات إلى قلبها منذ أن انتقلنا للعيش في الدوحة.
أزحت ملاءتي، ثم زفرت متبرمة ورحت أقول وأنا أخرج من خزانتي
ملابس مناسبة لرؤيتها:
- من أجل روح أمي لا أكثر ولا أقل.



مدت ساقها التي تعاني من خشونة في الركبة، ثم وضعت منسآتها على
يسارها وقالت:
- بلغني أن غرفتك أصبحت قبرك.
افتت ثغري مصطنعة البهجة ثم نظرت إلى أختي شفق بنظرة ساخطة
على ثرثرتها الزائدة، تنهدت كعجوز تنتظر الموت ثم قلت:
- وما عساي أفعل، فحلمي بيوم يجمعني بابنتي بات مستحيلاً.
كظمت نوبة البكاء التي عاودتني، ثم قلت: لقد فقدت الأمل في لقائها.
نظرت إليّ بحسرة، ثم قالت بصوت شجي:
- إنه لا يبأس من روح الله إلا القوم الكافرون.
في تلك اللحظة سرت قشعريرة في جسدي وشعرت بهرارة في حلقي،
حدثت نفسي وأنا أطأ رأساً:

- أَيْعَقِلْ أَنِّي غَفَلْتُ عَنِ الْقُرْآنِ وَشُغِلْتُ عَنْهُ طَوَالَ مَدَّةٍ بَحْثِي عَلَى ابْنَتِي، ثُمَّ أَرَدْتُ حِينَ أَحْسَسْتُ بَانْتِكَاسَةِ تَحْتَلِ قَلْبِي: يَا لَتَعَاسْتِي.
رَبَّتْ عَلَى رِكْبَتِي، ثُمَّ قَالَتْ وَالْإِبْتِسَامَةَ تَخْتَرِقُ وَجْهَهَا الْمَمْتَلَى بِخَطُوطِ
مَجْعَدَةٍ:

- إِيَّاكَ أَنْ تَقْطَعِي رَجَائِكَ بِاللَّهِ، فَالْحَيَاةُ مِنْ دُونَ أَمَلٍ كَلِيلَةٌ ظُلْمَاءُ مِنْ
دُونَ نَجُومٍ وَقَمَرٍ.

إيثار

باريس - الحي اللاتيني -

تشىخ قلوبنا قبل أن تتأجج رؤوسنا شيبا، تشىخ عندما نتلقى صفة خذلان، وعند رحيل أعز إنسان، تشىخ عند الانتظار وعند الغياب...

منذ أن أصيب عمي ياسر بأزمة قلبية أصبح يتفادى الحديث معي ويتحاشى النظر إلي، أراه في كل أحواله كاسف البال، عابسا ومقطب وجهه الذي لطالما أعارني به الابتسامات، لقد تغيرت طباعه وأصبح بين ليلة وضحاها لا يبالي بي وفوق كل ذلك يعتمد ثني كتاب الأنس الذي كان بيننا، لقد انقلبت تصرفاته ضدي، وما عاد يكلمني إلا للضرورة القصوى حتى أنني صرت أشعر بالرهبة في حضرته...

حين أثبت لي سمعي أن عمي ياسر قد ذهب لعيادته استعدت أنفاسي، وضعت الأوراق التي كنت أبوح لها بأسراري، ثم انتصبت واقفة وأرخت مفاصلي، تحركت في أرجاء غرفتي ثم رحلت أفكر في خطة أستطيع بها مواجهته ليكف عن تصرفاته التي خنقت فؤادي وزادت من وحشتي، وبينما كنت أطفو فوق محيطات أفكاري سمعت قرقرة بطني، ابتسمت ابتسامة باهتة ثم رحلت أحدث نفسي:

- لن أتمكن من التركيز قبل أن أتناول إفطاري.

رفعت ستائر النافذة ثم شرعت دفتيها ووقفت لأستمتع بنسمات الهواء التي كانت تداعب خصلات شعري فعاودني ألم معدتي الخاوية من مساء البارحة، اتجهت مستعجلة نحو الباب ثم فتحتة ببطية فوق بصري على ظرف متوسط الحجم كُتب على سطحه: "إليك يا ابنتي"، التقطته ثم عدت

لغرفتي، أوصدت بابها وتربعت بجوار سريري، مددت نفسا طويلا، ثم فتحته ويدي ترتعشان من شدة خوف. أدخلت يدي في الظرف لأستخرج ما يحتويه فوجدت الدفتر نفسه الذي كتم عمي السر الذي يتضمنه عني، قلبت أول صفحاته فانحدرت منه ورقة كان قد كُتِبَ فيها:

ابنتي إيثار...

ربما تساءلت عن سبب معاملتي لك طوال هذا الشهر بقسوة، اعذريني يا ابنتي لأنني لم أكن شجاعا بما يكفي لأواجهك وأخبرك بالحقيقة كاملة، سامحيني لأنني سأترك مهمة التوضيح للدفتر حين تقرئينه بدلا عني.

حين أتممت قراءة الورقة أعدتها للظرف، مسحت جبيني الذي كان يتصبب عرقًا، ثم حاولت أن أرخي مفاصلي التي كانت ترتعد فلم أستطع...



في مكان ليس ببعيد عن غرفة العمليات حيث كان عمي ياسر يصارع الموت أو بالأحرى أبي الذي أوهموني كذبا بأنه عمي كنت أجلس مطرقة وجفوني تمطر دموعا، طوقتني ماريا بذراعها، ثم قالت:

- كفي عن البكاء ألم يخبرك بأن نسبة نجاح عملياته كبيرة.

انخرطت في بكائي ثم قلت لها ودموعي تنهمر بأربعة مآق:

- أعلم ذلك، لكن أكثر ما يؤلمني هو كذبهم عليّ، صدقي أو لا تصدقي يا ماريا، لقد أعدت قراءة ما جاء في دفتره ألف مرة حتى إنني حفظت موضع الفاصلة والنقطة لعلمي أستوعب ما ورد فيه، لكنني لم أستطع ففي كل مرة أعيد قراءة ما جاء فيه أصاب بالخيبة لأنهم وبعد كل هذه السنين حطموا قلبي بقرارهم الأناي وجعلوه شظايا يصعب عليّ ترميمها، ثم أردفت بعد أن كظمت شهقتي:

- لماذا لم يخبروني منذ البداية بالحقيقة؟

أشاحت ماريا بوجهها بينما داهمتني جمانة التي وصلت للتو بسؤالها:

- عن أي حقيقة تتكلمين؟

- أمي وأبي ما زالوا على قيد الحياة، ثم أردفت وأنا أخرج الدفتر ومفاحل يدي تختلج:

- جمانة سأقرأ لك كل ما جاء في دفتر أبي، وأرجو أن تنبئني النبأ اليقين مما سمعت، فإني والله لم أعد أميز بين الوهم والحقيقة، فكففت دموعي واعتدلت في جلستي ثم قلت:

- يقول عمي ياسر بعد بسم الله الرحمن الرحيم...

ابنتي إيثار اليوم، يوم ليس كسائر الأيام لأنني اتخذت فيه أصعب قراراتين في حياتي كلها، أما أولهما فسيثلج صدرك حتما فقد عزمت قبل أسبوع وبعد حرب طويلة مع نفسي طوال المدة التي كنت أقسو عليك فيها أن أجري عملية جراحية أخبرني طبيبي أن نسبة نجاحها كبيرة، أما القرار الثاني والذي أظنه سيحزنك فهو مجرد اعتراف لك بالحقيقة التي صعب علي أن أبوح بها، منذ لقائنا الأول لشدة ثقلها على قلبي...

لكن قبل أن أقر دعينا نرجع إلى الوراء أربعين سنة، عندما كنت أنا طفلا صغيراً، لم يتجاوز التاسعة، حينها أذكر أن أبي تلقى عرضاً للعمل في إحدى الشركات الأجنبية الواقعة في اليمن وبالفعل سافرنا واستقر بنا الحال في مدينة تعز...

ومضت أيامنا في تعز سريعة، إلى أن أتى ذلك اليوم الذي توفي فيه أبونا في حادث مرور مروع، أذكر أنني كنت في سن الحادية عشر، بينما أتمت سيرين عامها الثامن، و على الرغم من ثقل الأيام التي مرت بعد وفاته، إلا أن أمي استطاعت خلال أعوام، وبعد مكابذ شاقة بمفردها أن تعيد لحياتنا توازننا، ووعدتنا أننا عندما نبلغ أشدنا ستعود بنا للجزائر، إلا أنه عندما تمت مراسيم خطبة عمته سيرين بشاب يماني، قررت أمي ألا تتركها بعد زفافها وتكمل بقية عمرها، في اليمن من أجلها، أما أنا فحين أنهيت دارستي، قررت أمي أن تزوجني، فخطبت لي فتاة يمنية الأصل أبهرها جمالها وحسن أخلاقها عندما التقت بها في إحدى المدارس القرآنية، و على الرغم من أنه

كان زواج تقليديا كما يصفونه في زماننا، إلا أنني أصبحت متيما بأمك بعد زفافنا بأشهر ...

بعد زفافنا بعام، وصلتني منحة لأكمل دراسة الدكتوراه في إحدى الجامعات الفرنسية، وبالفعل استجبت لطلب المنحة، وسافرت وحدي من دون أمك، لكن فرحتي لم تكتمل فبعد شهرين وفي إحدى اتصالاتي بأمي المعتادة، أخبرتني برغبة أمك بالانفصال عني، فحل علي الخبر كالصاعقة، وحاولت أن أحبط قرارها، لكن والدها رفض ووقف لكلينا بالمرصاد، لأسباب كنت و ما زلت لحد الآن أجهلها، وبالفعل تم الطلاق بعد شهر، فعزمت ألا أعود لليمن مرة أخرى...

بعد انقضاء شهرين على طلاقنا وبالتحديد في بداية شهر أكتوبر، أعلمتني أمي بأن طليقتي أنجبت لي طفلة وقد حرصت على إخفاء أمرها علي، ورفضت تربيتها والاعتناء بها، في تلك اللحظة ثارت ثائرتي وهاجت، واعتزمت حين أعمى الغضب بصيرتي أن أتخلى عنك، فنشأت كالطفلة اليتيمة بين أحضان أمي.

ومرت السنوات، فهزني الشوق لرؤيتك كأبي يتوق لرؤية ابنته، فعدت لليمن من أجلك، لكن أمي التي أطلقت عليك اسم إيثار ، كردة فعل على أنانية والديك، منعني من أخذك وأخبرتني أنها ستحرمني منك طول عمري عقوبةً على تصرفي الطائش، وقد استأنفت عقابها إلى أن أحست بقرب أجلها، فاتصلت بي لترد لي أمانتي، وأوصتني قبل وفاتها أن أطلب منك العفو عن ذنبها نيابة عنها، فهي من تسببت في إخفاء الحقيقة عنك... قد لا يصدق عقلك كل ما جاء في دفثري، لذا يمكنك العودة إلى وثنائقي الشخصية التي تركتها في درج مكثبي لتتأكدني بنفسك بأنني أبوك ولست عمك، ستجدين في دفتر عائلتنا أن لي اسمان، أولهما خالد وثنائهما ياسر، ولن أخفي عليك أن أمي استغلت هذا، وقامت بتسجيل اسم خالد فقط في كل وثنائك الشخصية، وذلك من أجل أن توهمك أن خالد هو أبوك الذي

توفي في حادث مرور مروع رفقة أمك، وأن ياسر هو عمك القاطع لرحمه،
والذي لا يسأل عنكم أبدًا.

جواد

الجزائر - شارع ديدوش مراد -

على رائحة القهوة وصوت مذياع قناة المجد للقرآن الكريم الذي يردد بعد كل ختمة _ قناة المجد للقرآن الكريم قرآن يتلى أثناء الليل وأطراف النهار- اعتادت أُمي أن توقظني منذ صغري، كنت متكئاً على جنبي الأيسر وشبه نائم حين تسلفت الرائحة وصوت أحد القراء إلى غرفتي، دخلت شقتي ثم جلست على طرف السرير ولامست بحنان قدماي ثم قالت:
- جواد استيقظ وصلّ الفجر قبل أن تشرق الشمس.

التفت إليها بعينين شبه مغمضتين ثم قلت وأنا أزيح الغطاء الذي كان يلفني:

- صباحك سكر يا أحلى من شهد النحلة، أشرقت أساريها في تلك اللحظة.

انتصبت واقفة فانحدرت إحدى الكتب التي كانت ترقد بجواري على الأرضية، بسطت نفساً عميقاً ثم قالت بظرافة:
- مسكينة زوجتك.

رفعت كلاً حاجبيّ ثم سألتها مستغرباً:

- لماذا؟

ضحكت حتى بدأت نواجذها، فتحت دفة النافذة وأرخت ستائرهما البنية ثم قالت:

- لأن الكتب التي لا تمل منها ستصبح يوماً لها كالضرة.



ما ذنب الأوطان إذا ابتليت بحكومات عاقبة...

ككل يوم جمعة احتشد الملايين من المتظاهرين في كل ربوع الوطن للمطالبة بتنحية كامل رموز النظام السابق...

كانت ساعة معصمي تشير إلى الواحدة زوالاً حين وصلت إلى ساحة البريد المركزي، ثبت الراية الوطنية فوق عاتقي ثم حملت لافتة كنت قد كتبت فيها هذا الصباح "تركوا الشعب يقرر مصيره". تغلغلت بين أبناء شعبي ورددت معهم بأعلى صوتي شعارات مختلفة، فتارة كنا نهتف " الجيش، الشعب، خاوة، خاوة " وتارة نردد الجملة التي اشتهر بها حراكنا "يتنحوا قاع" ومرة أخرى كنا نتغنى بإحدى مقاطع النشيد الوطني أو حتى بعض الأغنيات التي أَلَّفها الحراك الشعبي...

وبينما كنت أردد بحماس إحدى الشعارات وكزني أحدهم بمرفقه على ظهري، التفت إليه وأنا أتألم بشدة، جذبني بعيداً عن الحشد ثم احتضنني فاستغربت من فعله، كان شاباً في عقده الثالث، متوسط القامة وبارز الجبهة، كان يمسك بالعلم الفلسطيني الذي لظالما رأيته في المسيرات يرفرف عالياً رفقة العلم الجزائري، قال بعد أن قرأ ما دونت على لافتتي:

- هل تذكرتني؟

صعدت فيه نظري مرة أخرى، ثم قلت بعد أن رسبت في تذكر من يكون هو:

- إما أن أكون قد نسيتك، وإما أن تكون قد أخطأت في الشخص الذي تبحث عنه.

تبسم ضاحكا ثم قال:

- جواد هل نسيت ابن جاركم الذي جاءكم قبل سنوات خبر يعلمكم بموته في البحر المتوسط جراء هجرته الغير الشرعية؟..

ضيق عيناى ثم صافحته بحرارة وقلت:

- عمر؟؟؟؟

أوماً برأسه والابتسامة لا تفارق شفتيه فاستطردت:

- لقد تغير كل شيء فيك يا رجل حتى أفكارك التشاؤمية التي صدعتنا بها أكاد أجزم أنك تخلّيت عنها في إحدى المطارات أثناء عودتك، ثم أردفت وأنا أزد له وكرته القوية:

- ألم تكن قبل سنوات تسب وتلعن هذا الوطن البائس؟

ملأ صدره حزناً، زفر به حتى كادت أن تنكسر ضلوع صدره، ثم صرح قائلاً:

- ذلك عندما كان الوطن يشبه الجحيم أما اليوم فالأمر يختلف لأنني عدت للجزائر بمحض إرادتي، مد نفسه ثم استطرد:

- أتدري لماذا؟

- سألته باستغراب:

- لماذا؟

- لأن حراكنا السلمي بث فيّ روعي الأمل، ثم استرسل وهو يرفع الراية الفلسطينية عالياً:

- طوال مدة إقامتي في الخارج أدركت أنه لا ذنب للأوطان إذا ابتليت بحكومات عاقبة، صمت برهة وجيزة ثم أعطني بظهره ليخفي دمه السخين وتابع قائلاً:

- يتوجب على أوفياء هذا الوطن، أن يتحدوا ليكونوا شوكة في حلق كل غادر، لأنهم إن لم يفعلوا ذلك، فسيظل الخونة كالطعنة في قلب الوطن.



السادسة وعشرون دقيقة...

وضعت المفتاح في ثقب الباب ثم فتحتة فوق بصري على أمني التي كانت تنتظر قدومي في راحة البيت، حبست دموعها التي كانت على وشك السقوط من مقلتها حين رأنتي، ثم انتصبت واقفة وهي تستند على الحائط، اقتربت مني فأبصرت رموز الخوف تكسو ملامح وجهها، قالت منفعة:

- سامحك الله يا جواد، لقد جعلت قلبي يضطرب أين كنت؟ ثم تابعت وهي تقودني كطفل صغير نحو المائدة التي حضرتها:

- لقد اتصلت بكل رفاقك، لكن لا أحد منهم طمأنني وأخبرني أنه قد رآك اليوم في الحراك.

جلست على الكرسي وأنا أرخي مفاصلي المنهكة ثم قلت:

- لم كل هذا لخوف يا أمي؟ بقيت رفقة بعض الشباب المتطوعين لتنظيف الشوارع القريبة من ساحة البريد المركزي بعد أن أنهينا تظاهرتنا السلمية، ثم إنني تأخرت عن موعد دخولي المعتاد للمنزل حوالي ساعة من الزمن فقط...

قاطعتني قائلة:

- قلب الأم يا بني، ثم استطردت وهي تسكب القهوة في فنجاني:

- لقد حجز لنا خالك عصام تذكرتين للسفر...

بترت حديثها وأنا أحرك قطع السكر في فنجاني:

- نساfer، إلى أين؟

- إلى قطر، لقد اتصل قبل قدومك وأعلمني بأن صحة أمي تدهورت وزوجته الحامل لم تستطع القيام برعايتها، زمت شفيتها ثم استأنفت متبرمة:

- نساء آخر زمان، أنا عندما كنت في سنها خدمت حماقي وأنا حامل بك في شهري التاسع لكنني لم أشتكي إلى أبيك رحمة الله عليه.

ارتشفت رشفة من القهوة لتذوقها، ثم قلت وأنا أضيف قطعة من السكر:

- لقد تغير كل شيء يا أمي، رمقتني بنظرة تهكمية فغيرت مسار حديثي وسألتها:

- متى سنذهب؟

- بعد أسبوع لذا جهز نفسك واحزم حقائبك.

إيثار

تجاوز الليل ثلثه الثاني إلا أنني لم أستطع أن أنام لأنه ليس بمقدوري أن أكف عن البكاء، فالحزن عاكف في غرفتي ودموعي واكفة وقلبي واجف... بخطى مترددة تسللت إلى غرفتي، حدقت إلي حيث كنت متكورة في سريري كقنفذ يغط في سباته، ثم قالت وهي تجر قدميها نحوِي:
- أنينك طرد النوم عن جفوني، توقفي على البكاء. ثم استرسلت بعد نوبة سعال:

- ارحمي نفسك لقد مر أسبوعين، وأنت ما زلت على الحال نفسه، ألا ترين أن صوتك قد بُح من شدة الصراخ، وعيناك أصبحتا متورمتين. أشحت بوجهي عنها، وقلت:

- وكيف لي أن أكف عن البكاء وأبي الذي كنت أناديه عمي يرقد للأبد بعيداً عني، أخبريني يا ماريما من لي من بعده الآن لقد أصبحت وحيدة.
- وضعت يدها في ذقني ثم رفعت رأسي وأبعدت خصلات شعري التي كانت تغطي جزءاً من وجهي وقالت:

- إن شوائب الدهر لا تُدفع إلا بالصبر فاصبري ولتحمدي لله لأن أباك ياسر قد ترك لك خيوطاً توصلك إليها، ثم واصلت حديثها قائلة:
- إني أخشى أن يذهب الحزن بحبيبتيك قبل أن تتمكني من رؤية أمك. سرت قشعريرة في جسدي، ازدردت ريقي بصعوبة بسبب التهاب حنجرتي، ثم نأيت الدمع عن خدي، ثم سألتها بحيرة:
- أتعرفين أُمي؟

شبكت أصابعها وغرست بصرها في وقالت:

- أجل، وكيف لي ألا أعرفها وأبوك ياسر كان لا يكف عن الحديث عنها، أحجمت عن الكلام مدة قصيرة، ثم استطرقت وهي تنتصب واقفة:
- حان الوقت لأرد دين أبيك.

تحركت في أرجاء غرفتي التي تسلل إليها شعاع القمر من خلال النافذة، ثم قابلت مكتبي وراحت تقلب صفحات إحدى كتبي، أخرجت نفساً كان يثقل كاهل قلبها وقالت:

- أبوك كان أقرب الأصدقاء إلى زوجي، تعرفا على بعضهما حين كان كل منهما يكمل دراسته هنا في فرنسا، لقد كابدا معاناة الغربة، وتقاسما كل همومهما معا إلى أن تخرجا وصار لكل منهما عمل هنا، حينها أذكر أن زوجي عاد للجزائر من أجل أن يطلب يدي حين أخبرته حماقي بأني أتممت دراستي، فوافقت بعد أن تخلت أمي عن رفضها القاطع، وبالفعل تم الزواج وعدنا بعد أسبوعين إلى فرنسا.

كنا زوجين سعدين إلى أن أدمن زوجي شرب الخمر، فقسى قلبه وتغيرت طباعه، حتى أنه أصبح يعنفني بشدة... فهجرته وعدت مع جمانة التي لم تبلغ سن الثالثة إلى بيت أبي في تلمسان.

بعدها بسنتين، وحين وصله نبأ فقدان ابنتنا الوحيدة لبصرها بسبب اهمال طبي، عاد لأخذنا فامتثلت لأمره شفقة على ابنتي التي عاشت طيلة تلك المدة كاليتيمة.

صمتت قليلا لتستحضر الأحداث في مخيلتها، ثم أزاحت الكرسي وراحت تكمل بصوت مفعم بالأسى بعد أن قعدت:

- حين عدت إلى فرنسا عادت حياتنا إلى سالف عهدها بعد أن أفلح زوجي عن شرب الخمر، لكن صحته لم تعد كما كانت فقد أخبره الأطباء أن كبده قد تلف ولا بد من استئصاله واستبداله بآخر خلال وجيزة...

تناثرت قطرات من دموعها فكفكفتها بسرعة وراحت تواصل:

- لقد سامرتني الكآبة بعد أن فقدنا أملنا في العثور على كبد شخص متوفى، ودبّ اليأس في قلبي حين أنبأني زوجي أن مدة إجراء عملياته تنتهي

خلال أسبوع فقط، لقد بقيت طيلة أيام الأسبوع متوجسة من فقدان زوجي، لكن في صبيحة آخر يومين عن موعد اجراء العملية حدث ما لم يكن في الحسبان فقد أنبأني الأطباء بأن متبرعا أتاهم في ذلك الصباح بمحض إرادته وأنبأهم برغبته في التبرع بفص من كبده...

وعاش زوجي بعد إجراءه للعملية سنوات عديدة، وحين حضرته المنية أعلمني بأن ياسر هو من تبرع بنصف كبده، صمتت طويلاً ثم واصلت حديثها وهي تلتفت نحوي:

- لم يقتصر خير أبيك في التبرع فقط، فقد أمنَّ لي عملاً في عيادته بعد وفاة زوجي وساعدني في شراء بيتي كما أنه تكفل بعملية جمانة لتتمكن من الرؤية لكنها للأسف انتهت بالفشل.

تنهدت برضا ثم أردفت:

- لقد قررت السفر معك من أجل رد شملك بأملك كما جمع أبوك شمل أسرتي، ابتسمت، ثم واصلت:

- هكذا سأرد دين أبيك الذي عجزت عن رده.

بعد مرور أسبوعين...

مطار الدوحة الدولي...

ما إن أعلنت المضيئة أن الطائرة ستهب مدرج المطار خلال دقائق معدودات حتى شعرت أن أنفاسي تنقطع وقلبي يهوي ليرسوا أمام أخصم قدمي، تذكرت رحلتي مع أبي إلى باريس فأطلقت سراح تنبهدة ممتلئة بالأسى. وضعت جمانة التي كانت تجلس على جنبي يدها فوق يدي، ثم قالت:

- أشعر بما تشعرين ولا نملك إلا الدعاء.

أشحت بوجهي وقلت بياس:

- أخشى ألا تتقبل أمني وجودي معها بعد كل هذه السنين، ماذا لو أنها تزوجت بعد طلاقها من أبي ورفض زوجها وأبناؤها أن أكون جزءاً منهم، ماذا لو أنّ جدي الذي أصر على انفصال والدي تصدى لي أنا أيضاً؟ ماذا لو لم نعثر عليها أصلاً وكانت المعلومات التي تركها أبي عن مكان إقامتها ومقر عملها مجرد خربشات أكل عليها الدهر وشرب.

استقامت في جلستها بعد أن كانت غائصة في مقعدها، ابتسمت ثم قالت:

- حينها ستكون أمني بمثابة أمك وسأصبح أنا كالأخت لك.
سكبت دمعة على خدي ورحت أهمس لنفسي قائلة:
- ليت الأمر بتلك السهولة يا جمانة، أسندت رأسي إلى مقعد الطائرة ثم أطبقت جفوني ودعوت الله أن يمر أول لقاء بيننا على خير.

نهلة

كيف لأم أن تنسى قطعة من قطع قلبها؟ كيف لأم أن تُخمد نيران الفقد في قلبها، كيف لأم أن تصبر على لوعة فراق فلذة كبدها...

عدت لسائر حياتي بعد أن أثرت في كلمات صديقة أمي حليلة والتي كان لها دور كبير في انتشاري من عزلتي المرضية، أقفلت الباب بالقفل، ثم قلت بصوت عالي:

- لقد عدت يا شفق، اتجهت نحو المطبخ لأضع الحاجيات التي اشتريتها فوردت إلى أذني أصوات لأشخاص غرباء قادمة من غرفة الاستقبال، شربت كوباً من الماء البارد، ثم قلت لشفق التي أتت حين سمعت نداءي:

- هل لدينا ضيوف يا أختي؟

- نعم، ثمة أم وابنتها تريدان رؤيتك.

سألتهما باقتضاب:

- أتعرفينهما؟

ردت وهي تهز كتفيها:

- لا، ثم أضافت وهي تحمل ابنتها هالة التي كانت تصرخ:

- ربما تكون إحدى الطالبات التي درستهن في المدرسة القرآنية أتت رفقة

أمها لزيارتك.

ولجت إلى غرفتي ثم غيرت ملابسني وذهبت لأرى ضيوفني وما إن ولجت الغرفة حتى وقع بصري على امرأة لم تتجاوز عقدها الرابع، كانت تغطي شعرها بشال شفاف تسللت منه بعض من خصلات شعرها، وكانت تضع القليل من مساحيق التجميل، أما ابنتها التي كانت ترتدي لباساً أكثر احتشاماً منها لم أستطع أن أتعرف عليها.

قالت عندما رأتنى وهى تنتصب واقفة:

- أنت نهلة العري؟

اقتربت منها بثغر باسم، مددت يدي وصافحتها، ثم قلت:

- نعم.

تبادلت الابتسامة هى وابنتها، ثم قالت عندما رأت شفق تلج الغرفة

رفقة بناتها الثلاثة:

- هل نستطيع أن نتحدث على انفراد؟

قلت بارتباك:

- طبعاً، إن شئت فلنذهب إلى غرفتي، هزت رأسها إيجاباً ثم تبعتنى.

إيثار

- الدوحة -

تُرى كيف يكون شعور المرء حين يغوص في أحضان أمه وتمسح بكفيها علي رأسه؟ هل يشعر بالحنان، أو يغمره الحبور حتى يصبح كالطير يحلق عاليا بجناحيه في الأفق، هل يذرف الدمع ويبكي؟ أو أنه يكتفي بابتسامة يعترئها اطمئنان وسكون في قلبه، ترى هل يختلف ذلك الشعور من شخص لشخص أم أن جميع الأشخاص يتشابهون في ذلك؟

أزحت الستائر عن الشباك ثم رحلت أحدث نفسي:

- لماذا تأخرتا؟ أيعقل أنها رفضت لقائي؟ أو أنهما لم تعثرا عليها أصلا،

أخرجت زفرات يائسة ثم ضربت رأسي بقبضة كفي وقلت:

- كف عن التفكير فقد أرهقتني.

ارتميت فوق الأريكة، ثم انتصبت ورحلت قاصدة الباب بخطوات

متتعة عندما سمعت قرعا عليه، قلت وأنا أمسك قبضته:

- من؟

رد بصوت جهوري:

- الطعام سيدتي.

قلت بعد أن تنفست الصعداء:

- اتركه أمام الباب وسأخذه، استترت بحجابي ونقابي، ثم تسمرت أمام

الباب لدقائق، وحين اختفى صوت وقع أقدامه فتحته فوقع بصري على

طفلة صغيرة لم تتجاوز سن الثالثة من عمرها، كانت تبكي بشدة فأيقنت

أنها ظلت طريقها عن والديها، اقتربت منها، ثم حملتها برفق وسألتها وأنا

أمسح دموعها:

- ما اسمك؟

فركت عينها ثم علا نحيبها، أغلقت باب الغرفة، ثم سرت في الممر ورحت أطرق كل باب عسى أن يكون من ورائه أسرة هذه الطفلة، لكن سرعان ما أرهقني البحث فقررت الاتجاه إلى إدارة الفندق لأعلمهم بأمر الطفلة الضائعة وبينما كنت أهم بالنزول أوقفني صوت من بعيد يصرخ: "ابنتي".

استدرت فرأيت رجلاً يتقدم نحوي وما إن أصبح بقربي حتى استبدلت الطفلة بكائها بضحكة، أخذ ابنته ثم قال وهو يحتضنها:
- أشكرك على الاهتمام بها، التقطت نفساً ثم استطرده:
- ظننت أنني لن أراها مجدداً.

في تلك البرهة تذكرت أبي فشعرت بالدوار ورحت أبكي، ترنحت كزهرة تريد عاصفة أن تجتثها من الأرض ثم تعثرت بحجابي فهويت من أعلى الدرج.

نهلة

قالت وهي ترخي مفاصلها على المقعد:

- هلا أوصدت الباب من فضلك؟

زمنت شففتاي ورحت أقول في نفسي وأنا أهْمُ بغلقه:

- ألن تكف هذه المرأة عن إسداء الأوامر؟

نظرت إليّ بمجامع عينيها، ثم قالت:

- أعتذر فالأمر سري لهذه الدرجة وأنا لا أريد أن أسبب الإزعاج لأبيك

ولا لزوجك.

في تلك اللحظة شعرت أنها وضعت يدها على الجرح الذي يؤلمني، قلت

بسخط وأنا أفرك راحة يدي باضطراب:

- أبي توفي منذ عام ونصف أما أنا فقدت انفصلت عن زوجي قبل اثنتين

وعشرين سنة، ثم استرسلت حين استنزفت برودتها صبري:

- كفي عن المراوغة وأخبريني من أنت؟ وما الذي تريدينه مني؟

ابتسمت كأنها سمعت خبراً مفرحاً، ثم قالت وهي تعقد ذراعيها:

- جئت من أجل ياسر...

قاطعت كلامها بضحكتي التي ارتفعت عنان الغرفة، وليتها ظهري وأنا

أشد القبض على ذارعي الأيمن ثم قلت لها:

- أممم، فهمت كل شيء أنت زوجة ياسر وقد بعثك من أجل أن...

أحجمت عن مواصلة الكلام، التفت إليها فرأيت الحزن ينبس من وجهها،

قالت وهي تحتضن حقيبتها:

- ياسر مات منذ شهر كامل.

هويت على الأرض كورقة يابسة خرت من شجرة، أجهشت بالبكاء
فهرولت نحوي، أوقفنتي ثم أقعدتني على سريري وقالت:
- مات وهو يحمل الحب، والوفاء لك حتى أنه رفض أن يتزوج من
بعدك، وقد كان يتتبع كل أخبارك عن بعد.
مدت نفساً، ثم تابعت:

- ترك لك أمانة تخصك وقد أوصاني قبل وفاته أن ترد إليك.
طغت الحيرة على عقلي وارتعد قلبي لكن سرعان ما هدأ حين تذكرت
عقدي الذهبي الذي أخذه بالخطأ مع مقتنياته عندما غادر ليكمل دراسته
في فرنسا.

انتشر الصمت في غرفتي لكنها سرعان ما فرقته حين قالت لي:
- لن أجبرك على أخذها وإن لم تقبلي بها، فأنا سأخذها بدل عنك، سعلت
بشدة ثم أضافت:
- القرار يعود إليك.

مسحت الدمعة العالقة بين أهداي، وجفوني ثم قلت وأنا ابسط راحة
يدي:
- سأخذها.

انتصبت والابتسامة لا تفارق شفثيها احتضنتني، ثم قالت:
- لنسرع فهي بانتظارك
رفعت كلا حاجبي، وأملت رأسي ثم قلت ببلاهة:
- عقدي الذهبي ينتظرنني؟
انحدرت دمعة حارة على خدها ثم قالت:
- ألم تفهمي بعد، الأمانة التي تركها لك ياسر هي ابنتك إيثار.

إيثار

عندما فتحت عيناى استقبلتنى ماريا الجالسة عن شمالي بابتسامة مشرقة، تفحصت جسدى الذى كان مغطا بغطاء أبيض، ثم قلت لها بصعوبة بالغة من شدة ألمى:

- أين نحن؟ وما الذى حدث معى؟

التقطت نفسا عميقا ثم قالت:

- فى المستشفى، لقد كُسرَت ساقك اليمنى ووضعوا لك رسخ حديدي فى يدك اليسرى، ثم تابعت وهى تعقد ذراعيها:

- كيف حدث لك هذا؟

أزحت الغطاء الذى كان يلفنى لأرى ساقى ويدي المتضررة ثم اعتدلت فى جلستى وقلت:

- تعرفين أننى لا أحبذ فكرة الصعود فى المصاعد لذا اتجهت نحو السلام، وبينما كنت أهم بالنزول تعثرت بحجاي وسقطت من أعلى درجاته.

رسمت بسمة على مبسمها ثم قالت:

- آه، يا إيثار لو أنك...

قاطعته بتردد:

- هل التقيت بأمى؟

أحجمت عن الاجابة فاضطرب قلبى وأيقنت أنها ستزف إلى مسمعى خبراً سيئاً، حنيت رأسى كي لا ترى دموعى، ثم قلت لها:

- أخبرينى الحقيقة هى لا تريد رؤيتى أليس كذلك؟

حنت رأسها بحزن وقالت:

- كلا، فهي تتوق لرؤيتك.

تغيرت ملامح وجهي من شدة الغضب في تلك اللحظة، زممت شففتاي
ثم قلت لها:

- لا أريد رؤيتها إذن.

هزت كتفيّ بأطراف أصابعها وقالت:

- هل تسمع أذناك ما قلته للتو؟

أشحت بوجهي عنها، وقلت بسخط لها:

- نعم أسمع وسأعيد لك ما قلته للتو:

- " أخبريها أنني لا أريد رؤيتها "

قطبت جبينها، مطت شففتيها وراحت تقول:

- هل عليّ أن أذكرك بأنني قطعيت كل هذه المسافة من أجل رد شملكما،

ثم أردفت وهي تربت على كتفي:

- لماذا؟

أطرقت وأنا أبكي:

- سأحرمها مني كما حرمتني من نفسها في صغري. تنهدت ثم جلست

على طرف السرير وقالت وهي تضع كفها على ساقِي التي كُسرت:

- لقد كذبوا عليها كما كذبوا عليك، لقد رشا جدك القابلة التي أشرفت

على توليدك بمال كثير مقابل أن تخبر والدتك بأن مولودها وُلد ميتاً.

في تلك اللحظة تذكرت تلك العجوز التي مدت لي يد المساعدة عندما

توفيت أمل، وتردد في أذني ما قالته " أرواح المؤمنين تتعارف " لقد روت لي

في ذلك اليوم قصة ذلك المولود الذي أعلمت فيه والدته بأنه وُلد ميتاً،

ازدردت ريقِي وأغمضت عيني، ثم حدثت نفسي:

- أيعقل أن يكون ذلك المولود أنا؟

مددت نفسي لاستجمع قواي ثم قلت لها:

- وهل كانت أمي طوال هذه المدة لا تعلم بأنني على قيد الحياة؟
- نعم، فجدك أخبرها بالحقيقة قبل وفاته بساعات قليلة، بحث
واستفسرت عنك طويلاً لكنها سرعان ما قطعت الأمل في لقاءك عندما
وصلتها أخبار مفادها بأن عائلة أبيك قد مات كل أفرادها في غارة جوية.
- وأين هي الآن؟

ضيقت عينها ثم قالت وهي تبتسم:
- تنتظر استيقاظك رفقة جمانة، سأناديهما.
رسمت بسمة على مبسمي، ثم قلت وأنا أبعد ملاءة السرير:
- ساعديني على النهوض أولاً فأنا أريد أن أرتمي في حضنها الذي حرمت
منه طيلة هذه السنوات.

امتثلت ماريا لأمرى بطيب خاطر ثم خرجت وتركت الباب مفتوحاً
وبينما أنا أجفف دموعي دلفت جمانة وهي تتحسس الطريق نحو
بعضائها، اقتربت مني ثم احتضنتني وقالت:
- تشبهك كثيراً كما وصفتها لي أمي، وما إن أتمت كلامها حتى رأيتها تقف
أمامي، لقد صدقت جمانة فأنا نسخة مصغرة عنها، خطت خطوة واحدة،
ثم قالت وهي تجهش بالبكاء:

انتظرتك طويلاً، انتظرتك حتى صار قلبي كجناح الطير يضرب.
انتظرتك طويلاً، انتظرتك لتكوني بلسماً لخدوش قلبي فتعالجينه.
انتظرتك طويلاً، انتظرتك لتنسيني مرارة الفقد وتعمريني.
انتظرتك طويلاً، انتظرتك، حتى مرت الأيام على قلبي كالصخور الثقيلة.
انتظرتك طويلاً، انتظرتك لكنك رحلت وتركتني وحيدة.
ارتقيت في حضنها وعلا نحبي، ثم قلت بصوت متقطع:
. لم أتركك لكنهم فرقونا رغماً عنا.

بعد مرور عشرة أيام...

مجدداً عادت الكوايبس المزعجة ووساوس رهاب الموت تتأجج بعقلي، مجدداً عدت للنقطة الصفر كما لو أنني لم أتلق علاجاً قط، مجدداً عادت فكرة الموت تُرعبني.

هممت برفع صحون المائدة بعد أن أتمنا تناول الغذاء فأوقفتني أمي قائلة وهي تُطعم هالة ابنة خالتي شفق:

- إيثار دعني الصحون واجلسي. ابتسمت ثم أذعنت لأمرها فاسترسلت:
- هل أنت بخير؟

وضعت يديّ تحت المائدة ثم شددت فستاني بيدي السليمة وقلت وأنا أحاول صرف ظنونها التي أقلقتها:

- أنت كل الخير يا أمي فكيف لي ألا أكون بخير وأنت بقربي؟
حدقت إليّ بريية ثم قالت:

- وجهك شاحب وملامحك يعترئها حزن دائم منذ قدومك كما أنني لاحظت أنك لا تستطيعين التركيز معظم الأوقات في حديثنا أنا وخالتك شفق.

مسحت يدها بمنديل ورقي، ثم واصلت:

- هل لي أن أعرف ما الذي يحدث معك؟ هيا أخبريني يا ابنتي فأنا أمك. أشحت بوجهي ثم قلت وأنا أحاول طمس حقيقة مرضي عنها:
- لا شيء يا أمي.

تنهدت بعمق ثم قالت:

- الأمهات بارعات في اكتشاف أكاذيب أبنائهن، هيا ثبتي عينيك في عيني لأتفحصهما.

ابتسمت ابتسامة حائرة ثم امتثلت لطلبها وقلبي يكاد يفلت مني، شربت كوباً من الماء ثم قالت بعد أن أتمت قراءة كل شاردة وواردة أخفيها عنها.

- إن محاولاتك في إخفاء نوبات هلعك وقلقك الشديد وأرقك المتكرر لن تفلح أمامي.

أطرقت جفوني التي امتلأت دموعاً، فاستطردت:
- لا تقلقي فكل شيء سيكون على ما يرام، مساء اليوم سنذهب إلى اختصاصي ...

قاطعتها بارتباك قائلة:

- لا أريد أن أذهب إلى أي أحد يا أمي.

استفسرت باقتضاب وهي تهتم واقفة:

- لماذا؟

- لأنه تم تشخيص مرضي.

ترنحت كأن دواراً أصابها وسقط كوب الماء الذي كانت تحمله فتناثرت شظايا الزجاج من حولها، قالت بوجس وهي تتقدم نحوي:

- وما الذي قاله؟

في تلك اللحظة شعرت أن الموت دنى مني أكثر فأجهشت بالبكاء ثم قلت بغصة:

- رهأب الموت يا أمي، إني لا أكف عن التفكير فيه، إذا خرجت من المنزل يأتي شعور بأنني سأموت وإذا قرأت كتاباً أو حاولت أن أكتب شيئاً يأتي شعور بأنني سأموت، وإذا توسدت وسادتي للنوم يأتي شعور بأنني سأموت، إني أراه في كل ناحية من نواحي حياتي.

وضعت كفي لأخفي عنها ملامحي الواهنة ثم انخرطت في بكاء عميق، قعدت على ركبتيها ثم نزعت يدي المرتجفتين عن وجهي وراحت تقول وهي تكفكف دموعي:

- يا ابنتي إن امتحانات الدنيا وابتلاءاتها لن تنفذ إلا بنفاذك ولن تبرح إلا ببروحك فجاهدي نفسك واثبتي في وجه كل فتنة تُعرض على قلبك.

نأيت دمعي عن خدي ثم خفضت رأسي وهمست قائلة:

- ثبتني إلى أن ألقاك وأنت راض عني.

جواد

- الدوحة -

التاسعة ونصف مساءً ...

عندما دلفت حديقة البيت كان الجميع ملتفًا حول المائدة يتسامرون فيما بينهم، خطوات خطواتي نحوهم فكفّ كل واحد منهم لسانه عن الكلام، لوحت لي أُمي وقالت:

- أسرع يا جواد.

- وما إن أصبحت بقربهم حتى رأيت جدتي تستند على عكازها وتهتم بالدخول لمنزل، طبعت قبلة على خدها المملوء بالتجاعيد، ثم سألتها:

- هل أوصلك لغرفتك؟

نظرت إليّ بمجامع عينها ثم نزعت نظاراتها ذات الزجاج السميك وقالت وهي تضع منسأتها في موضع قلبي:

- لا تنقصك سوى زوجة تكون سندا لك في هذه الحياة، تنحنحت ثم ابتسمت وأعطتني بظهرها وولجت رفقة خالي عصام وزوجه إلى البيت.

جلست على الكرسي، ثم رسمت ابتسامة جامدة ورحت أقول لأُمي:

- من أين جاءت جدتي بهذا الكلام؟

تنهدت ثم قالت:

- منذ أن رأتها في الحفل منذ أيام.

وضعت يديّ تحت رأسي وساقا على ساق، ثم سألتها قرير البال:

- ومن تكون هذه التي سطت على عقل جدتي؟

عقدت جبينها وقالت:

- كل ما أعرفه عنها...

قاطعتها سُهَى ابنة خالي التي تجاوزت عقدها الأول قائلة:

انتظري يا عمتي سأحدثه أنا عنها بدلا منك.

وضعت جهاز الأيباد الذي كانت تعبت به فوق الطاولة، ثم تركت مقعدها واقتربت من أذني، حجبت بيديها نصف وجهها كي لا يصل كلامها إلى مسمع أمي ثم همست قائلة:

- جميلة وتحب الكتب مثلك تماما فقد رأيتها تقرأ كتاباً عندما ولجت غرفتها بالخطأ ولكنني نسيت عنوانه.

رفعت حاجبا دون الآخر ثم غمزتني وعادت لمقعدها فعابنتها ببصري وأنا أضحك بشدة من تصرفها، التفت إلى أمي ثم قلت لها:

- قالت جميلة وتحب الكتب مثلي، صمت برهة ثم أردفت بجديّة:

- ما رأيك أنت يا أمي؟

وضعت يدها فوق كفي وقالت:

- إذا أردت رأيي فطيب خاطر أمي ثم إن الكلمة الأخيرة تعود إليك يا بني. طأطأت رأسي ورحت أقول لنفسِي:

- إيثار، مازال شيء منها عالق في قلبي.

أغمضت عيني ثم ضربت مكنون الود الذي أحمله في قلبي اتجاهها عرض الحائط حين تذكرت تلك الخاطرة، رفعت رأسي ثم هززت كتفائي وقلت غير مبالي:

- أخبري جدتي أن حفيدها قد وافق على طلبها.

إيثار

بعد مرور عشرة أيام على الحفل الذي أقامته أمي بمناسبة عودتي إليها سالمة وتمأثلي للشفاء تلقت اتصالاً هاتفياً، كان الوقت صباح الجمعة وكانت الساعة تشير إلى التاسعة إلا ربع.

أغلقت سماعة الهاتف ثم سرحت بنظرها فيّ وابتسامتها التي يشوبها الحزن ترفض أن تفرق شفيتها، انتصبت واقفة ثم جلست بقربي، وضعت كفها على خدي ثم قالت بعد صمت أقلقني:

- هل عرفتك بصديقة أمي الراحلة حليلة.

- ربما، لكنني نسيت فالنساء اللواتي حضرن الحفل كثيرات يا أمي.

- حليلة تلك المرأة الجزائرية المتماسكة على الرغم من أنها تجاوزت السبعين من عمرها.

- نعم، لقد تذكرتها.

- لقد طلبت يدك للزواج.

ابتلعت ريقى وشعرت أن خلا أصاب مشاعري فترنحت وكادت أن تهوى إلى مكان سحيق، شخصت ببصري في الكتاب الذي كنت أحمله فهجست بي الخواطر وشردت عندما رأيت طيف جواد يظهر على إحدى صفحاته، مططت شفتي وحدثت نفسي:

. لكن أين هو جواد؟ ألسنت أنا في مشرق العالم العربي وهو في مغربه،

كيف لنا أن نلتقي إذن... ثم لو كان خيراً لي لبقى، كتمت تنهيدة كانت على وشك الخروج ثم استطردت أتجاوز مع نفسي قائلة لها:

- أحياناً يكفيننا الله أذى من أحببناهم بالفراق.

تنحنحت لتخرجني من جب تفكيري، ثم قالت:

- لن أجبرك لكن لا ترفضني وصلي صلاة الاستخارة ليختار الله لك وليطمئن قلبك.

تبسمت رغماً عن أحاسيسي التي كانت تختلج بداخلي، ثم قلت وأنا أهم بالذهاب لغرفتي:
- سأفعل إن شاء الله يا أمي.

جواد

كنت شارد الذهن، مشوش الفكر، مسرحاً بنظري نحو سقف الغرفة حين سمعت أحدهم يقرع باب الغرفة، انتصبت ثم اعتدلت في جلستي وقلت:

- تفضل.

تنحنحت ثم ولجت الغرفة بخطوات متثاقلة وهي تستند على منسآتها تحمل بين يديها كتاباً لم يتبين لي عنوانه، حدقت في حقائبتي التي انتهيت من حزمها للتو ثم رمقتني ببصرها وقالت:

- أراك قد حزمت حقائبك باكراً يا جواد أل هذه الدرجة اشتقت للجزائر.

أحجمت عن الكلام واكتفيت برسم ابتسامة عريضة على وجهي.

تهددت ثم قالت وهي تمدني بالكتاب التي كانت تحمله:

- أليس هذا لك؟

ضيقت عيني وقلت وأنا أخذه منها:

- لا، لكنني أملك آخر يشبهه لكنه ليس لي، فتحت الكتاب على الصفحة العاشرة ثم قلبت في عجالة صفحاته المتبقية فعثرت على أوراق إيثار في وسطه، في تلك اللحظة انقبضت معدتي وشعرت أن الأدرينالين قد تدفق في جسمي، أطبقت الكتاب والغموض يفترسني، أضمرت صوتي لدقائق معدودات ثم قلت لجديتي:

- أين عثرت عليه أذكر أنني تركته في مكتبة منزلنا.

ركزت عينيها فيّ، ثم قالت وهي تجلس إلى جنبي:

- قبل مجيئكما طلبت من أمك أن تعيرني جميع كتب التفسير التي عندكم ألم تخبرك بذلك؟

هززت رأسي نافية فأردفت:

- منذ أن أصبت بوعكة صحية لم يعد بمقدوري أن أذهب للمدرسة القرآنية فعزمت أن أكمل دربي مع القرآن لوحدي وقررت أن أحفظ في كل يوم آية ثم أستقصي في كتب التفسير عن شرحها، ونفسيرها، وأسباب نزولها. ابتسمت ثم أضافت بوقار:

- هل للقرآن نصيب من وقتك الذي تخصصه لقراءة الكتب يا جواد؟

هممت أن أقول لها بأني لا أفتح مصحفي إلا في شهر رمضان لكنني شعرت أن لساني حبس عن الكلام، حنيت رأسي خجلا فعلمت جوابي فورا، وضعت يدها فوق ساقي وقالت:

- أتدري ما الحرمان؟ نزعت نظاراتها ثم استطردت:

- أن تلتهم كتابا وراء كتاب ومصحفك يكسوه الغبار، ثم واصلت كلامها قائلة:

- كدت أن أنسى الشيء الذي أتيت من أجله.

فركت شعري ورفعت حاجبا دون الآخر وقلت:

- من أجل أن تُعيدني إليّ الكتاب؟

تبسمت ضاحكة ثم قالت:

- نعم، وثمة شيء آخر مهم أيضاً.

إيثار

العاشرة والنصف صباحا ...

حين أثقل الغمام كاهل السماء انقطعت شرايين السحاب فأمطرت،
سرت قشعريرة في جسدي وانتابنتي نوبة سعال فأسرعت أمي التي انهدت
اتصالها للتو خائفة نحوي، لفتني بملاءة سرير المستشفى السماوية، ثم
ابتسمت ابتسامة قائد حقق هو وجيشه الانتصار، قعدت على الكرسي الذي
كان عن يميني ثم قالت:

- لقد انتهى كل شيء.

قلبت بصري بعيدا عنها ثم قلت وأنا أعيد مشهد أحداث خطبتي
الفاشلة في مخيلتي:

- لا يهمني شيء سوى ذلك الشخص الذي تقدم لخطبتي، مددت نفسي
ثم قلت:

- لأنني لحد الآن ما زالت أشعر أنني قد التقيت به من قبل، لقد كان
يشبه ذلك الشاب الذي كان يعمل مساعدا ممارسا في عيادة أبي. أحجمت
عن مواصلة الكلام لبرهة وجيزة، ثم سألتها بارتباك:

- هل أطلعتك الجدة حليلة عن اسم حفيدها الذي طلب يدي؟

نظرت إلي من طرف خفي، ثم قالت:

- أخبرتني لكنني نسيت فمنذ وفاة أبي وأمّي أصبحت ذاكرتي ضعيفة.

اسندت ظهرها على الكرسي ثم أعقبت:

- يخلق من الشبه أربعين يا ابنتي، ربما شخص آخر يشبهه.

حررت زفرات خافتة ثم قلت:

- من المستحيل أن ننسى ملامح أشخاص وهبناهم حبنا يا أمي.
اتسع بؤبؤ عينيها ورسمت على محياها ابتسامة يعترها شيء من
الجدية ثم قالت:

- عليك أن تمزقي صفحة ما حدث لك البارحة من ذاكرتك.

وضعت كفها على يدي وأضافت بعد زفرة قوية:

- في المرة القادمة اختاري نصفك الثاني بنفسك.

طبعت قبلة على حين غرة على خدي ثم قالت وهي تنتصب واقفة:

- يجب أن أعود فخالتك شفق قررت اليوم أن تعود لبيتها وعليّ أن...

قاطعتها سائلة:

- ألن أعود معك للمنزل؟ ظننت أنك أتيت لأخذي.

- تمنيت ذلك لكن طبيبك منعني عندما التقيته هذا الصباح، لقد أخبرني

أنه يريد أن يفحص يديك من جديد فهو يعتقد أن الدعامة قد تحرك عن
مكانه عندما سقطت عليه فاقدة الوعي.

عانقتني بشدة ثم لوحت بيدها وهي تهّم بغلق الباب مودعة إياي،

أرخيت مفاصلي المرهقة ثم تمددت على السرير ورحت استدعى النعاس
ليمس مقلتي.

جواد

توسمت ملامحها الصرامة وبدت أكثر جدية عن المعتاد، ثبتت عكازها على الأرض، ثم وضعت كلتا يديها على سنامه وقالت:
- جواد أنا حقاً آسفة.

شبكت أصابعي وقلت متناسياً مشهد مساء البارحة:

- تأسفين على ماذا يا جدتي؟

زفرت بتذمر وقالت:

- لا تتعمد النسيان فأنا أرى الخيبة في عينيك كما أرى نفسي في المرآة.

مصممت شففتاي وقلت:

- خائب من تصرفها، ثم لو رأيتها وهي تبكي لخاب ظنك أنت أيضاً.

التقطت نفسا، ثم انتصبت واقفا وأصفت:

- بمجرد أن رأنتي أمسكت بموضع قلبها وأنفاسها تتقطع كأنها ستصعد للسماء، ابتعدت خطوتين للوراء ودموعها تتناثر، شهقت ثم هوت على الأرض فاقدة وعيها، زممت شففتاي ثم قطبت جبيني ورحت أصرح لجدتي
بغرور:

- كأنها رأت عفريتاً وليس شاباً وسيماً مثلي. ثم تابعت بتهكم:

- خيرها في غيرها.

- لا تظلمها فخلف كل حقيقة، حقيقة أخرى. ثم قالت بعد أن تنهدت:

- الحق عليّ لأنني لم أخبرك مسبقاً بأنها تعاني من رهاب الموت، المسكينة من كثرة ما وارى التراب جسد أحببتها لم تستطع التخلص منه.

ازدردت رريقي وقلت بأسى وأنا أضيّق عيني:

- رهاب الموت!

حدقت في كتاب إيثار الذي كان ملقى فوق السرير، ثم أشرت بسبابتي وقلت لجدتي

- وصاحبة ذلك الكتاب كانت تعاني منه أيضاً.

التقطته ثم وضعته فوق حجرها، مسحت نظاراتها ثم ارتدتها وفتحت الكتاب على أول صفحة ثم قرأت بصوت جهوري متهدج اسم إيثار الكامل الذي كان مدونا في أعلى الصفحة.

نظرت إليّ بمجامع عينيها والحيرة تلتخ وجھها، أطبقت الكتاب محترسة ثم قالت:

- هل صاحبة هذا الكتاب كانت تعيش رفقة أبيها في باريس لوحدهما؟
- أجل، لكن كيف عرفت يا جدتي.

اختلجت عينيها ووضعت كفها على خدها من شدة دهشتها، ثم قالت وهي تنهض:

- يا للعجائب القدر، فايثار هي نفس الفتاة التي تقدمت لخطبتها مساء البارحة، لكن كيف لم تتمكن من التعرف عليها يا جواد؟

عصفت في رأسي عدة أفكار في تلك اللحظة أطلت النظر إليها، ثم نكست بصري وقلت لها كمريض استيقظ للتو من غيبوبته:
- ذلك لأنها كانت فتاة منتقبة.

الثانية والنصف ليلاً...

منذ أن أخبرتني جدتي وتأكدت من قرينة أمي ماريا أن ياسر توفي قبل شهرين متأثراً بمرضه لم يغادرني طيفه وها هو يسامرني الليلة بمظهره الأنيق الذي لطالما اعتنى به رحمة الله عليه، أطبقت عيناى المنفتختين لعل طيفه يتلاشى في الظلام فجالت بخاطري كل تلك اللحظات التي قضيتها رفقة

طيلة ثلاثة أعوام، ابتلعت ريقى الذي كان محشوا بالألم ثم تساءلت في نفسي:

- ترى كيف استوعبت إيثار فكرة أن ياسر أبوها وليس عمها كما كان يزعم؟

ترى كيف تقبلت حقيقة أن أمها ما زالت على قيد الحياة، فركت هامة رأسي ثم قلت بصوت جهوري كأنني ألقى درسا على طلاب:
- عجيبة هي بعض أقدار الناس.

حدقت في كتابها طويلا، ثم تمددت على سريري ورحت أنقلب في فراشي، أزحت الغطاء الذي كان يلفني كشرنقة الفراش، ثم تأففت متذمرا من السهاد الذي لم أعده، وضعت الوسادة فوق رأسي لأسكن عجيج أفكارى فسمعت وقع قدمين ومنسأة في الممر المؤدى للحمام، ضربت راحة يدي بقبضة كفى، ثم قلت ببهجة:

- لا بد أن جدتي استيقظت لتصلي قيام الليل.

انتصبت بسرور، ثم فتحت باب الغرفة بحذر حتى لا يؤذي صريه المزعج النائمين، أضأت نور الممر الهادئ، ثم تربعت بجوار غرفتها وبقيت أنتظر قدومها كحارس ليلي لإحدى الممتلكات.

قالت بصوت خافت وهي تمسح وجهها الوضاء حين رأتنى:

- جواد هل أنت بخير؟

انتصبت واقفا، ثم اقتربت منها وهمست في أذنها قائلا:

- هلا أسديت لي خدمة؟

أومأت برأسها موافقة على طلبي، ثم أشارت إليّ بمنسأتها أن ألق إلى غرفتها التي كان يطل عليها بدر وقبيلة من النجوم.

لبست خمار الصلاة وارتدت نظاراتها، ثم قالت مبتسمة:

- ادلي بدلوك وأخبرني عن طلبك الذي طرد النوم عن جفونك يا جواد.

أوصدت فمي أمام تناؤب كان على وشك الخروج، ثم قلت:

- أريد عنوان المستشفى الذي ترقد فيه إيثار ورقم غرفتها.
قطبت جبينها، ثم سألت وهي تهم بفتح مصحفها الشريف:
- لماذا؟

تنهدت ثم قلت:

- كتاب التفسير الذي استعرتَه من أمي أمانة في عنقي ويتوجب عليّ أن
أعيده إليها قبل أن...

قاطعتني قائلة:

- هل من طلب آخر؟

أومأت برأسي إيجاباً كطفل يريد مزيداً من الحلويات ثم قلت بثغر
باسم وأنا أفرش لها سجادة الصلاة:
- أحتاج دعائك.

إيثار

الرابعة والنصف مساءً ...

خلف زجاج نافذة غرفة المستشفى كنت أقف محدقة في الأمطار التي كانت تهطل بشدة، تناولت نفساً عميقاً، ثم وضعت يدي المُعفاة على زجاج النافذة ورحت أقول بأسي:

- ليت المطر يغسل ذاكرتي لأنسى كما يغسل الأرصفة والطرقات، أسندت رأسي على النافذة وجففت دمعي الذي سكبته حين زارني طيف أبي، تنهدت ثم رفعت رأسي ورحت أصرح بنظري في السماء فرن هاتفي لينتشلني من أعماق تفكيري، اتجهت نحوه بتقاعس، ثم التقطته فظهر لي رقم جمانة، رفعت السماعة فقالت من دون أن تُلقي السلام علي:

- أنسيّنتي أم أنني أصبحت في خبر كان؟

تربعت فوق السرير، ثم قلت بعد أن أفلتت ضحكة مني:

- من فلسفة الحياة أن يجازى الغياب بالغياب والشوق هو القصاص.

- انفجرت ضاحكة فأمسكت بأطراف الكلام وأقدمت على طرح سؤالٍ

بعد أن استعدت رباطة جأشي لأتأكد إن كان جواد هو نفسه حفيد حليلة، أم لا:

- هل من أخبار عن جواد؟ أقصد هل تعلمين أين هو الآن؟

تنحنحت، ثم قالت بمكر:

- لقد أكل عليه الدهر وشرب فمنذ عودته للجزائر انقطعت أخباره لكن

إذا أردت معرفة مكانه فسأسأل أمي عنه، زممت شففتاي ثم قلت لها حين أوجست أذني قرعاً خفيفاً في الباب:

- جمانة سأعيد الاتصال بك لاحقاً فأحدهم يقرع باب غرفتي.

استويت في جلستي، أدخلت خصلات شعري التي كانت تتدلى من
الخمار، ثم قلت بعد أن قطعت الاتصال:
- تفضل.

حملت في الباب ورحت أنتظر ضيفي ليدفع الباب، لكن لم يلج أحد،
فقصدته وما إن فتحته حتى وقع بصري على كيس ورقي معلق في قبضته
النحاسية، أخذت الكيس، ثم دفعت رأسي خارج الباب، التفت يمينا ثم
شمالا لكنني لم أجد أي شخص يثير الشكوك سوى ممرضة كانت تجر عربة
أحد المرضى الملقدين، التقطت نفسا عميقا ثم أوصلت الباب ووضعت
الكيس فوق سريري.

جواد

مثل ملاكم خرج مهزوما من حلبته - التي لطالما سحق فيها خصومه،
وكان يظفر بالانتصار فيها - انعطفت، ثم سرت في الرواق المؤدي إلى خارج
المستشفى حيث كانت السماء تبكي، وكان فؤادي يتألم، استدرت لأعود
أدراجي إليها وأحدثها لكن كبريائي منعني وحذرتني قائلاً:
- كرامة المرء فوق الحب وفوق كل شيء يهيم به.

تنهدت لأخرج سموم الهموم التي تربصت بقلبي، ثم واصلت سيرتي
وأنا أتخيل ردة فعلها عندما ترى الكيس الذي وضعت فيه كتابها الذي
دستت بين طياته أوراقها التي عكرت صفوة الود الذي كان بيننا.
واصلت المشي إلى أن تسمرت قدمي عند أسكفة المستشفى، نظرت إلى
السماء التي اشتد بكاؤها، رسمت ابتسامة ثم قلت في سري:
- أتمنى لك كل الخير يا إيثار.

فتحت مظلتي السوداء كريش الغراب، ثم اتجهت حيث ركنت سيارة
خالي عصام وبينما أنا أخطو خطواتي البائسة نحوها رن هاتفني فتوقفت
عن المسير، أخرجته من جيب معطفي فظهر لي رقم دولي، رفعت السماعة
من دون ملاحظة فورد على سمعي صوتها الذي كدت أن أنساه، تنفست
الصعداء، ثم قالت:

- جواد أحمد الله لأنه مكنك من الرد عليّ، ثم أردفت ساخرة:

- هل أنت حي؟

أجبتها ببلادة وثقل في روحي:

- وهل يرد الأموات هل على اتصالات الأحياء؟

ضحكت ضحكة صغيرة، ثم قالت:

- أنت منذ أن عدت للجزائر لم تسأل عن حالنا.
- أعتذر...

- قاطعتني مستعجلة وكأنها كانت تنتظر اعتذارى:

- اعتذارك مقبول بحكم قرابة أُمى بأملك لكن بشرط أن تصغى إلى
حدىثى جىدا فهو ىخص إىثار ابنة ىاسر رحمه الله.

اضطرب فؤادى، وتجمدت قسماى ووجهى وسرت قشعرىرة من هامة
رأسى إلى أحمص قدمى، قالت بعد نحنحة قصىرة:

- فى البداة كنت مترددة فى إخبارك لأننى كنت أعلم أن إىثار لن تغفر
لى إن حاكىتك فى هذا الموضوع، لكننى أظن أننى قد أخطأت فى حساباتى
لأننى الوم اكتشفت أنها ما زالت تذكرك على الرغم من مرور أكثر من عام
على رحىلك.

أطرت لحظة وجىزة ثم تابعت:

- لا ىحق لى أئدخلى فى شؤون حىاتك، لكن إذا ما زال قلبك ىحمل الود
لها فما رأىك أن نساعدك فى طلب ىدها للزواج.

أجمت عن الرد وساد صمت ثقىل بىننا لأننى كنت متأكدا من مشاعر
إىثار اىجاهى وقد حسم كبرىائى أمرها قبل لحظاى.

تابعت سىرى، ثم قلت وأنا أستخرج مفاىح سىارة خالى عصام من جىب
سروالى:

- وهل تعبرىن سؤالها عنى من المعجزاى؟

ثم أردفت:

- جمانة لا تغطى الشمس بالغربال، فأنت تعلمىن جىدا بأنها كانت
تتجاهلنى طوال الومى وكانت لا تُعبرنى أى اهتمام.

- ماذا ترىد أكثر من هذا ىا جواد؟ بربك ألم تخبرك تصرفاىها بأنها تكتم
حبها لك ابتغاء مرضاة الله، ألم تعلمك أفعالها أنها رفضت أن تفصح لك

عن مكنون مشاعرها فقط لأنها كانت تخاف أن تفتنك في دينك ودينك،
التقطت نفساً مشحوناً بالغضب ثم أضافت:

- إن لم تصدقني فاقراً مضمون تلك الأوراق الني نهيتك عن قراءتها منذ
عام فهي ستكشف لك عن مدى شغفها بك الذي ظلت تحمله كالجمرة
الملتهبة لا هي خمدت ولا هي تلاشت كالرماد، لا تُكابر فأنا متأكدة بأن
شيئاً منها مزال عالقاً بين ثنايا فؤادك، سأنتظر رداً منك بخصوص هذا
الموضوع يا جواد، ثم قطعت الاتصال...

- كان يحشر كلتا يديه في جيبه وكان يسند ظهره إلى الحائط في آخر الرواق، التفت نحوي فرآني واقفة، حدق إلي طويلاً بثغر باسم، ثم طأطأ رأسه وهو يخطو خطوات واثقة نحوي، وما إن اقترب مني حتى راح يجمع أوراقه، نظمها ثم قال:

- إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين.

تمت والحمد لله.

